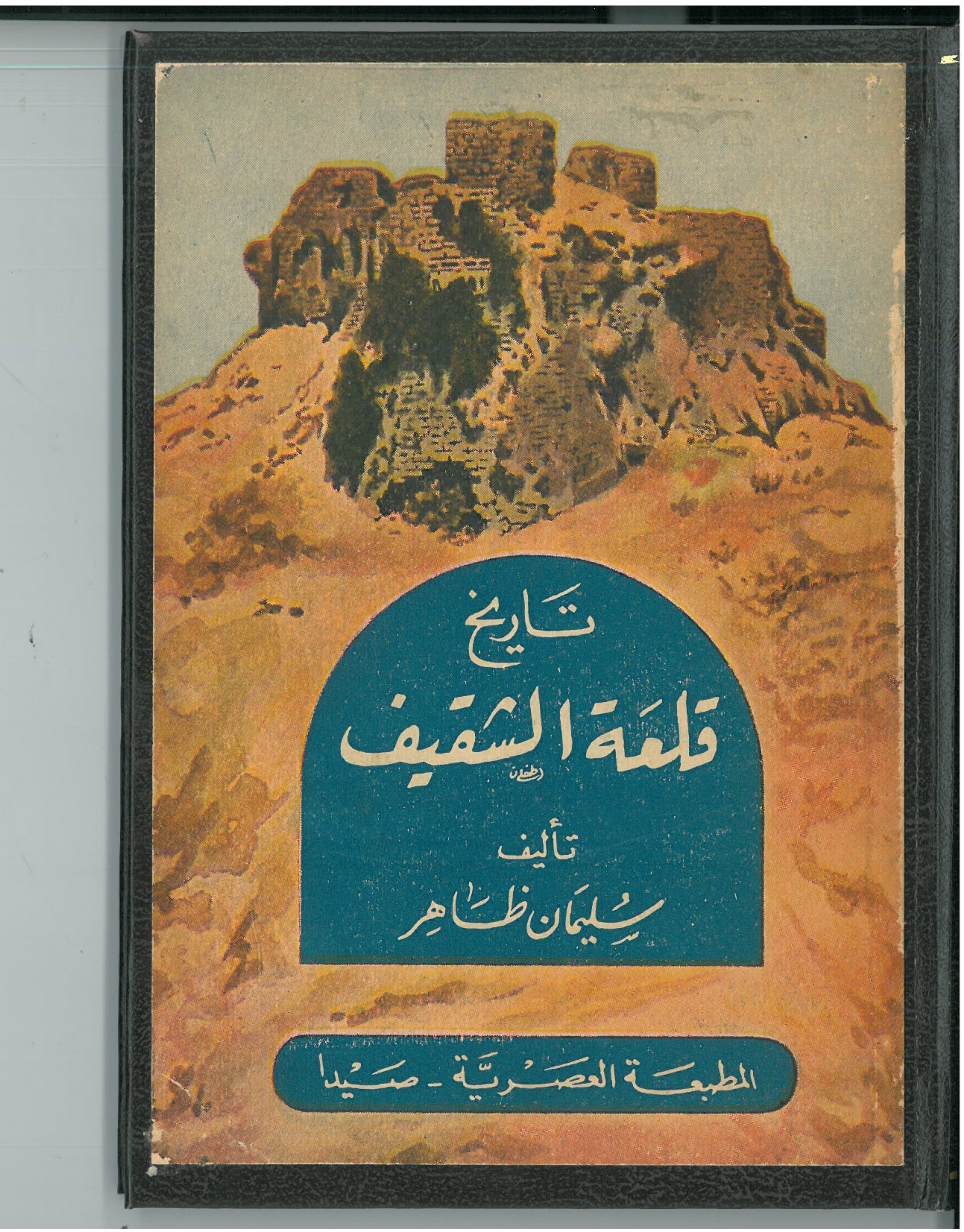

تاريخ
قلعة الشقيف
تأليف
سليمان ظاهر
المطبعة العصرية - صيدا

سليمان ظاهر

تاريخ قلعة الشقيف

الناشر: المكتبة العصرية - صيدا وبيروت

المطبعة العصرية
للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - تلفون ٧٢٤

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله تعالى على ترادف نعمائــه وتوالي آلائه والصلاة على رسله وانبيائه وخيرة اوليائه .

فقد عنيت بكتابة فصول في المجلد السادس من مجلة العرفان الراقية عن قلعة الشقيف وتاريخها وتاريخ بنائها ووصفها وما مر عليها مـن حوادث الزمان وتعاقب الايدي الى عهد احمد باشا الجزار الذي غلب عليـها حكامها العامليين ، ودمر ما استطاع تدميره من بنائها ولم تصل يده الا الى اعاليها واما الوثيق منه من طبقاتها السفلية فظل ثابتاً ثبات الروامي على شقيفها الخالد .

وقد لاقى ما كتبه في ذلك الحين استحسانا مــن القراء وطلب الي بعض الادباء نقلها الى اللغة الانكليزية والتمس مني غير واحد ان انظم كتابا على حدة من تلك الفصول وهي ضائعة في محيط اربعين مجلداً من العرفان ولا تصل ايدي القارئين الى ذلك المجلد الذي دونت فيه آثارها واخبارها وكل ما بلغه بحثي من الوقوف عليه ولعله فات علمي عنها الشيء الكثير ولكنني اجتهدت وراجعت ما امكنني من المظان والمراجع قدر الاستطاعة والطاقة في هذا السبيل والمرء لا يكلف فوق مقدوره وفوق كل ذي علم عليم .

سليمان ظاهر

جبل عامل وقلعة الشقيف

(نظرة في تحديده)

Jabal amel et ١ calat el chakif

ان كلام العلماء الذين كتبوا عن موقع جبل عامل من القطر السوري وحدوده مضطرب ايما اضطراب ولم نجد من افرده بالبحث بل كل ما كتب فيه لم يكن الا بطريق الاستطراد اللهم الا بعض المتأخرين من بنيه ولكنهم لم يوفوا الموضوع حقه من التمحيص والتحقيق وكيف كان فإن المعتمد من مجموع ما كتب في تحديده هو ما يلي .

من الجانب القبلي النهر المسمى نهر القرن الجاري شمالي طرشيحا الى البحر جنوب قرية الزيب (اكزيب) بالقرب من عكا وشمالا النهر المسمى بالاولي الذي يصب في البحر المتوسط شمالي مدينة صيداء ومن الغرب البحر ومن الشرق طرف الاردن والحيط والحولة الى نهر الفجر ووادي عوبا (١) .

ويقرب من هذا التحديد ما جاء في تاريخ الامير حيدر الشهابي « وكان البطريق الذي في قلعة الشقيف يحكم على جميع بلاد جبل عامل سهلها والجبل من ساحل صيداء الى عكا .

واقد كانت قصبة جزين وملحقاتها وجبل الريحان حتى مشغرة من أعمال البقاع تابعة جبل عامل .

تسامح بعض الكتاب حتى جعل لبنان منه وصفد وآخر ضيقه حتى جعله قسما من بلاد بشارة القبلية وآخر قسما من الشقيف .

«١» العقدة المنضد لشبيب باشا الاسعد

اما التعرض لنقل اقاويل العلماء في تحديده فانه لا يتسع له كتاب وضع لغير هذا الغرض فنحيل البحث عنه الى موضعه من (تاريخ جبل عامل) .

قلاعه وحصونه

ان في جبل عامل قلاعا وحصونا كثيرة بعضها داثر وبعضها لا يزال ماثلا بفخامته التاريخية لا بأبهته العمرانية احتفظت به السلطات المختلفة التي كانت تعتصم به في مهاب اعصارها المتعارضة ؛ فانتشلته من انياب عوادي الحدثان ، كما استبقى على سلطانها وكف عنها اكف العدوان .

ان تلك القلاع والحصون لا ترجع في بنائها الى زمن عادي ومع تداول هذه البلاد بين الفينيقيين والاسرائيليين والرومانيين واليونانيين والبابليين والاشوريين فانه لايرى فيها من المباني ما ينطق عن عظمة تلك الامم التي القت سفن مطامعها فيها مراسي قوتها وان كانت غنية بالآثار الفينيقية والاسرائيلية الاخرى التي لا تتعدى النواويس والهيا كل والعاديات الزجاجية والخزفية والحجرية التي افرغت فيها قرائح الصناع اقصى مجهوداتها ومعظمها يدل على مبلغ الصناعة الفينيقية من الدقة ، واتقان الصنع .

وكيف كان فانه لا يوجد في جبل عامل قلاع يرجع بناؤها الى عهد تلك الامم — واما القلاع والحصون التي لا يزال بعضها قائماً فيه لا يمتد زمن بنائه الى ما قبل ميلاد سيدنا المسيح (عليه وعلى نبينا افضل الصلاة السلام) ومن قلاعه ما هو من منشآت الرومان بعد الميلاد على الراجح كقلعة الشقيف ومنها ما هو من ابنية الصليبيين كقلاع هونين وتبنين

ودوبيه وبرج قلوية ومنها ما هو من بناء المسلمين والامراء الذين تداولوا الحكم على البلاد العاملية في القرون الاخيرة كقلعة مارون .

أما تحديد زمن تلك المنشآت على وجه التحقيق فهو مما لا يصل اليه بحثنا لطموس اثره وانقطاع خبره .

قلعة الشقيف

موقعها .

هي على ثلاثة اميال تقريبا من النبطية (قاعدة حكومة الشقيف) في الشرق الجنوبي منها وعلى بعد عشرين دقيقة من قرية ارنون المسماة باسمها في الشرق الجنوبي منها . قائمة على امنع مرتفع من مرتفعات الشقيف يتمثل امامها ابدع مناظر البلاد التي تشرف عليها . وتترصد طرق الغزاة الطامعين في الاستيلاء على البلاد الحامية لها بما فيه من المنعة والحصانة . وتطل على عورات العدو وتنكشف لها قلاع هونين وتبنين وابي الحسن ودوبيه وبرج قلويه وشقيف تيرون وبانياس من الجهات الاربع ومرتفعات لبنان وجبل عامل وجبل حرمون وسفوحه واعالي الجولان وهضاب صفد ووادي الاردن وسواحل فينيقية الشمالية حتى بيروت والجنوبية حتى عكاء وبالجملة فانها تنكشف الى كل ما ينكشف لها ، ويجد فيها زائرها من جمال المناظر الطبيعية في بلاد حوت ابدع صحيفة من صحائفها ما يفيض قريحته سحرا إن كان شاعراً ، ويملأ فؤاده روعة واعتباراً باستعادته ذكرى امم شغلت اهم اسفار التوراة وافسح صفحات التاريخ البشري بآثارها الدثر ، ومناقبها الغر ، إن كان حكيما . ويأخذ بمجامع لبه ما يراه من موقعها الحصين ومنعتها الحربية

إن كان قائداً . فهي للشاعر وحي قريحته ، وللحكيم ذبالة بصيرته ، وللقائد مستزاد قوته ، ولمستقرىء حوادث التاريخ سفر يقرأ فيه بعين الذكر والفكر تطاحن المسلمين والصليبيين في القرون الوسطى وتداولهم الاستحواذ عليها ، وتصادم قوى المتغلبين في القرون التي تليها وهم الذين كانوا يتنازعون السلطة على القطر السوري ايام الحكم الاقطاعي المضطرب حتى القرن الثامن عشر .

وهي عن هاجرة لندن غرينوانيش تقريبا في طول شرقي ٣٥،٢٨،٤٥° وعرض شمالي ٣٣،٢٢° وارتفاعها عن سطح البحر زهاء ٧٠٠ متر .

وفي دائرة المعارف (١) (وهي واقعة على تل مرتفع يصعد اليها من قرية ارنون) ولها طريق آخر من الجهة الجنوبية اسهل من الطريق المذكور وبين القرية وحضيض التل الذي عليه القلعة بقعة عرضها نحو عشرة دقائق وفي الطريق من القرية الى القلعة بركة كبيرة متينة البناء واقعة على سفح التل وبالقرب منها آثار قرية كانت تابعة للقلعة يحيط بها سور وبرجان مستديران .

والى الجنوب الغربي منها فسحة من الارض مستوية يظن انها كانت ميدانا للعساكر وهي ذات مناظر جميلة الا انها منفردة .

والجانب الشرقي من ذلك التل يشرف على نهر الليطاني الجاري في واد ضيق عند حضيضه وهو قائم على خط يكاد يكون مستقيما . وارتفاعه عن الليطاني ١٥٠٠ قدم . واما ارتفاع التل عن قرية ارنون من الجهة الاخرى فيكاد لا يبلغ ٥٠٠ قدم واما ارتفاع قمة التل عن سطح البحر

---

(١) م ص ٢٥٤ (٢) قرية صغيرة في ناحية الشقيف التابعة قضاء صيدا تبعد نحو نصف ساعة عن قرية النبطية مركز الناحية وعدد سكانها نحو سبعين نفساً من المتاولة وقد اشتهرت هذه القرية بالقلعة المسماة بأسمها وهي على مسافة ٢٠ دقيقة منها (عن الدائرة)

فهو ٢٢٠٥ اقدام (١) وهو اعلى من جميع الاراضي والتلال المجاورة له ما عدا جبل الريحان وجبال هونين وليس فيه شيء من الاشجار وترى القلعة عليه من كل جهات تلك البلاد من مسافة بعيدة .

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي شقيف ارنون بفتح اوله وكسر ثانيه ثم باء مثناه من تحت وفاء ، وبعد الراء الساكنة نون اخرى والشقيف كالكهف اضيف الى ارنون اسم رجل اما رومي واما افرنجي وهو قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل » .

ونحو ذلك في خلاصة الاثر للمحبي حيث قال والشقيف بفتح الشين المعجمة وكسر القاف وسكون الياء المثناة تحت ثم فاء وتعرف شقيف ارنون بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو ثم نون في الآخر .

« قال في المشترك وهو اسم رجل اضيف اليه ويعرف ايضا بالشقيف الكبير وهو حصن بين دمشق والساحل بعضه مغارة منحوتة في الصخر وبعضه له سور وهو في غاية الحصانة . وعلى القرب منه شقيف آخر يعرف شقيف تيرون بكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء وضم الراء المهملة وسكون الواو ونون في الآخر . وهي قلعة من جهة الاردن على مسيرة يوم من صفد في سمت الشمال (٢) « قال في مسالك الابصار

(١) وفي مصور الماني ان ارتفاعها ٦٧٠ متراً وكذلك جاء قياس ارتفاعها في كتاب السائح الفرنسوي كيران (٢) ان هذا التعريف بقلعة تيرون اشبه بأن يكون تعريفا بقلعة شقيف ارنون واكثر ما كتب عن موقعها مخالف للواقع ومنه ما في تعليقات تاريخ بيروت لصالح بن يحيي (شقيف تيرون اي شقيف صور وكان حصناً وثيقاً بالقرب من صور) وحقيقة موقعه ما جاء في تاريخ الامير حيدر الشهابي (وهو شرقي صيدا اي بينها وبين دمشق)وفي ملاحظات الامير شكيب ارسلان على تعليقات تاريخ بيروت وهو (ان شقيف تيرون هو المعروف اليوم بقلعة نيحا في آخر قضاء الشوف على حدود جزين)

وليست من بلاد صفد وأهل هذا العمل رافضة والله اعلم .

وهذا عين ما ورد في صبح الاعشي للقلقشندي وقد عدها كما نقل ذلك في مسالك الابصار) في العمل العاشر من اعمال صفد احدى قواعد المملكة الشامية .

وقال عند ذكره لجبال الشام ومنها جبل عاملة وهو جبل يمتد في شرقي ساحل الروم وجنوبيه ، حتى يقرب من مدينة صور ، وعليه شقيف ارنون ، نزله بنو عاملة بن سبا من عرب اليمن عند تفرقهم بسيل العرم فعرف بهم .

وبعد فان موقع قلعة الشقيف اعرف من أن يعرف ولم يهمل ذكره كل من كتب حوادث القرون الوسطى وما يليها حتى يومنا هذا فندع نقل كل ما كتبه العلماء عنه الى ما هو أعود في الموضوع وأفيد .

اسماؤها

إذا كانت كثرة الاسماء تدل على شرف المسمى فلا جرم اذا تعددت اسماء هذه القلعة الجميلة التاريخية فهي تعرف عند مؤرخي العرب بحصن ارنون وشقيف ارنون . والشقيف الكبير . وقلعة الشقيف . والشقيف بجردة عن المضاف اليه واذا اطلق الشقيف في كلمات المؤرخين يتبادر الذهن اليها عند الاطلاق ويسميها الافرنج بلفورت او بوفورت ومعناهما الحصن الجميل ويطلق الشقيف كما في القاموس على اربعة مواضع ، ولم يسمها والظاهر أن الاربعة هي شقيف ارنون والشقيف المعروف بحصن جلدك من اعمال طبريا فتحه صلاح الدين سنة ٥٧٨ وشقيف تيرون والشقيف من البلاد المجاورة لهما فتح سنة ٥٨٣

– بناتها وتاريخ بنائها –

لامشاحة ان ايدي الفاتحين والغزاة قد تلاعبت في هذه القلعة بين هدم وتعمير ومشت فيها تبعا للخطط الحربية فما كان يطرأ عليها من متجددات بناء الغالب الظافر كان يكون منطبقا بلاريب على ذوقه العمراني فأعيد المنهدم منها مرة من الصليبيين واخرى من المسلمين وتارة من الحكام الاقطاعيين من امرآء سورية ولبنان وجبل عامل

وأما موءسسها الاول فهو مجهول لنا(١) واما ما بناه الصليبيون فيختلف في شكله عما بناه غيرهم ولهذا لا يصعب تمييزه عنه . ولا ريب في أن بناءها كان قبل ايام الصليبيين بمدة مديدة الا اننا لم نقف على ذكر لها في التاريخ قبل القرن الثاني عشر الميلاد . ولا يبعد انه كان بعد تملك الرومانيين او البزنطيين سورية وربما كان قبل تلك الايام ايضا . وقد ذكرها موءرخو الحروب الصليبية الفرنسويون مراراً تحت اسم بلفرت او بوفورت الا انهم لم يتعرضوا لذكر تاريخ بنائها ولا يعلم بالتحقيق الذين بنوها أنصارى هم ام مسلمون والمرجح انهم نصارى لانهم بنوا غيرها من القلاع المجاورة لها كقلعة تبنين وصفد وغيرهما (٢)

ورجح المقتطف ان بناتها الاولين من الرومان بعد الميلاد

وزعم بعضهم (٣) انها من بناء الصليبيين . وان فيها بناء فينيقيا قديما . ولكنه قال ان تسميتها بقلعة شقيف ارنون مأخوذ من اسم قرية بجانبها . وأن معنى ارنون الجرذون . وقد سبق ما يوءيد سبب التسمية وفيه دفع ما زعمه البعض (٤) من ان ارنون تصحيف اسم ارنلد وهو

---

(١) كيران الفرنسوي
(٢) الدائرة (٣) شاكر الخوري في كتابه مجمع المسرات (٤) الاب لويس شيخو في تعليقاته على تاريخ بيروت لصالح بن يحي

صاحب صيدا وكانت القلعة تابعة لمنطقة حكمه وهو المسمى عند موءرخي العرب بارناط وعند بعضهم باسم ارناط (١) وهذا اقرب لأسمه الفرنجي وارناط اسم اميرين من الفرنج كانا في سوريا في ايام الصليبية وكان احدهما صاحب انطاكية والكرك ويسميه الافرنج رينوا وارنلد وشاتيليون والآخر صاحب صيدا والشقيف . ويعرف عند الافرنج برينلدو صيدون كان في قلعة الشقيف عندما حاصرها صلاح الدين الايوبي (٢) واي ضرورة داعية لارتكاب هذا الاستنتاج ودعوى التصحيف البعيد ومخالفة المشهور من شيوع هذا الاسم بين الموءرخين مضافا الى موافقته لاسم نهر اوميل يخرج من جبل جلعاد قرب قطرانة على طريق حجاج الشام . كان قديما يفصل بين ارض موآب وارض الاموريين . موقعه الى شمالي موآب ثم جعل فاصلا بين موآب واسرائيل (راوبين) ويستفاد من سفر القضاة (١١ : ١٨) انه كان ايضا تخم موآب الشرقي . وذكر يوسيفوس انه يخرج من جبال بلاد العرب ويجري في البرية الى ان يصب في بحيرة لوط . وكان في ايام ايرونيموس لم يزل معروفا باسم ارنون الا انه في ترجمة اسفار موسى الخمسة العربية السامرية لابي سعيد ذكر باسم الموجب ولا شك في ان ما يعرف في هذه الايام بوادي الموجب هو هو نفس ارنون (٣) وفي قاموس الكتاب المقدس ارنون (مصوب) اعظم نهر الى شرقي بحر لوط وكان في الاصل تخما فاصلا بين الموابيين والعمونيين ثم بين الموآبيين والاموريين وسط وأوبين ويدعى الان (الموجب طوله نحو ٥٠ ميلا يصب في البحر الميت

وفي تاريخ المطران يوسف الدبس (٤) وارنون واد ونهر يصب في

---

(١) تاريخ ابي الفدا (٢) الدائره
«٣» الدائره «٤» م٢ ص١٦٦

بحر الميت (بحيرة لوط) ويسمى الآن النهر الموجب او المعجب على رواية بعضهم وكان قديما فاصلاً بين املاك الموابيين في جنوبه وبين املاك الامورييين في شماليه كما يفصل الان ولاية البلقاء في شماله عن بلاد الكرك في جنوبه (فيكورو في معجم الكتاب) وجاء في تاريخ سورية «١» وادي ارتون بالتاء المثناة في الحرف الثالث . وارنوت بالتاء المثناة الفوقية ابدل النون في الحرف الخامس (في تاريخ سورية للمؤرخ المحقق جرجي ينى الطرابلسي) « ٢ »

والكلمة على ما يظهر عبرانية او سريانية واكثر اسماء القرى العاملية عبراني ولا غرو فقد كان القسم الجبلي من جبل عامل في جملة اسهم اسباط اسرائيل . وموقع قلعة شقيف ارنون وما يجاوره كان من سبط اشير على ما هو الراجح

ولعل الاسرائيليين الذين استولوا على هذا الموقع اطلقوا على الوادي الواقع شرقيه والذي يجري فيه نهر الليطاني اسم ارنون لما رأوا فيه من المشابهة بوادي ارنون من عبر الاردن

وجاء في كتاب امل الآمل (٢) ما يؤيد سبق اسم ارنون لاسم (ارنلد) الفرنجي في رواية يسندها الى الامام ،ولانا الصادق جعفر بن محمد(٣) (عليهما السلام) ومحصلها انه يصف قوما من شيعة اهل البيت (عليهم السلام) ولما سئل عن مكان وجودهم قال بلدة بالشام . قيل يا ابن رسول الله إن اعمال الشام متسعة . قال بلدة باعمال الشقيف . ارنون وبيوت وربوع تعرف بسواحل البحر واوطئة الجبال

«١» م٢ وجه ١٧٠ «٢» وجه ٨٥

«٣» للشيخ محمد الحر العاملي احد اعيان علماء القرن الحادي عشر المتوفي سنة ١١٠٤ بمشهد الرضا «خراسان»

٢

القلعة بين التدمير والتعمير

إن قلعة الشقيف بما اختصت به من موقعها الطبيعي الحصين المشرف على اهم مرافىء البحر الرومي . الحامية لقطعة صالحة من اعمال الساحل الشامي . تترصد طريق كل طامح اليها من البر والبحر . لمن المستبعد جدا في عرف رجال الاجناد وحماة الثغور أن تطوى صحيفة من عمرانها طي الصحف المنسية، ولا تنشر لها صحيفة من العمران حافلة بمواد الدفاع وادوات الامتناع ، ولا يكون من اول خطط الطامعين في امتلاك ما تحميه محو سطور عظمتها ودك حصونها حتى لا تكون حاميتها درءاً لما هو تحت حمايتها

إن من يملك ذلك الساحل الممتد من عكاء الى بيروت جنوبا وشمالا وما اليها ويحاذيها من الاعمال مضطر بحكم الدفاع عن بيضتها الى امتلاك تلك القلعة المنيعة وتحصينها وشحنها بالسلاح والرجال ، والات القتال ، رداً لعادية غزاة تلك الاعمال ،

إن هذه القلعة وهي بهذه المثابة وهي من امنع الحصون وحامية ذمار ما ينسب اليها من البلاد وما تتبعه من القواعد . لم تكن لتستسلم للطامعين استسلام الصاغر الذليل وتفتح لهم ابوابها عفواً صفوا ، لا جرم أنه مقضي عليها قضاءاً مبرما بهذه الاعتبارات واشباهها أن تكون كالريشة في مهاب الاعاصير عرضة (للتدمير والتعمير)

تداولت على الاعمال التي تشرف عليها دول شتى ، وتطاحنت عليها امم وشعوب ، ومر عليها من العبر والمثلات ما يستوعب كتابا ضخما . فلا غرو إن شغلت هذه القلعة الثابتة ثبات الجبال الشم في مدرجة تلك الخطوب والكوارث افسح صحيفة من صحائف تلك الأيام

إن عمي علينا نبأ ما وعته من اخبار العهدين الفينيقي والاسرائيلي وانباء غزاة الاشوريين والفارسيين والمصريين وهم يدوخون بجيوشهم الكثيفة هذه البلاد في القرون الاولى واخفى علينا التاريخ ما كان لها من شأن في تلك الايام فلم يعم علينا الاستنتاج من اخبار ما يلي تلك القرون وهي ملأى من الاحداث ما كان لها فيها من المكانة التاريخية وهي تنتقل من ثم الرومان الى الصليبيين في العهد الاسلامي وهم يتداولونها فيما بينهم وهم دول شتى يسطو بعضهم ببعض

انتقلت من الخلفاء الامويين ثم الى العباسيين فالطولونيين فخلفاء مصر العلويين فالسلاجقة فالاتابكة من الترك فالصليبيين ومنهم الى الاكراد ثم الى مواليهم وموالي الترك ثم الى الصليبيين ثم الى الاتراك فأمراء هذه البلاد الوطنيين دواليك

إن مؤرخي العرب لم يتعرضوا لذكر هذه القلعة قبل الحروب الصليبية وفيها قبل عام ٥٨٥ هـ و١١٨٩ م ولكن وليم اسقف صور تعرض لذكرها قبل هذا التاريخ بعشرسنين (١) وبعض مؤرخي الفرنج «٢» رجع في ذكرها الى ابعد من هذا الزمن بكثير حيث قال

«١» الدائرة قال بعد ان انهزم المسيحيون في تلك السنة من وجه صلاح الدين بالقرب من بانياس التجأ كثير من الاشراف والعسكر الى قلعة بلفورت المجاورة

(٢) كيران

انها وقعت في قبضة (فولك) ملك القدس عام ١١٣٩ م و٥٣٤ هـ «١» وانت خبير أن ذلك لا ينفي أن تكون قائمة قبل ذلك العهد . ولا يبعد أن تكون قد ذكرت في جملة الحصون الساحلية التي اجمل المؤرخون ذكرها ووقعت في قبضة الصليبيين فكانت حدود فتوحاتهم شمالا الاسكندرونة وجنوباً ديار مصر ولم يبق في يد الاسلام سوى حمص وحماة والشام وحلب مع بعض القرى الحقيرة «٢» وذلك في عام ١٠٩٩ م ٤٩٣ هـ

نكاد نقطع بأنها كانت قائمة في عهد الغزوة الاولى الصليبية . وأنهم امتلكوها من الساحل قبل اجتماع كلمة المسلمين على دفع إتي غزواتهم

لا نعني بالقطع في قيامها في ذلك العهد انها كانت عامرة عمرانا تستغني به عن الترميم وزيادة التحصين فلا جرم أن ايدي الصليبيين امتدت اليها بعد أن ملكوها باعادة متهدمها وتجديد دائرها وقام لهم فيها من البناء الجديد ما يتميز عن بنائها الروماني القديم وعن بناء العرب فان الجهة الغربية كلها مع الزاوية الشمالية والجنوبية الغربية قد بنيت قبل الصليبيين بمدة مستطيلة ومعظم القلعة الان هو من القسم المذكور . وليس فيه من بناء القرون المتوسطة الا آثار قليلة . والظاهر ان الصليبيين بنوا اكثر الجهة الشرقية منها ويرى في الوسط كنيسة لاتينية ذات سقف مؤلف من قناطر متقاطعة وبابها الصغير يدخل منه الى الدار الداخلية . وهناك آثار ابنية يظن انها كانت اصطبلات اقامها الصليبيون . وبالقرب

«١» هو صهر بودين الثاني خلفه على القدس بعد وفاته واستمر ملكا عليها اثنتي عشرة سنة ومات بسبب سقوطه عن فرسه

«٢» قطف الزهور

من الزاوية الشرقية آثار ابنية متصلة بأعلى القلعة كان يـــدخل منهـا اليها «١»

وهي كسائر قـــلاع القرون الوسطى في بلاد الشام من بناء كثير من الملوك والمتغلبين واهم ابنيتها من اواخر العهد الروماني «٢» ومعظمها من بناء العرب . وفيها معبد «٣» او مصلى من القرون الوسطى من الجهة الشرقية «٤»

إن هذه القلعة المنيعة الشمآ المحصنة تحصينا طبيعيا وصناعيا مع ما عرفه الصليبيون يوم استحواذهم عليها من المجهودات في منعتها ، وتوسيع رقعتها ، وجعلها في مظهر تستطيع به مقاومة كل قوة اسلامية تحاول استردادها . كان ارناط (رينولد) يفرغ همه في تحصينها اثناء الهدنة التي عقدها مع (صلاح الدين) يوم جآءها محاصراً بجيشه الكثيف المجهز بآلات الحصار وادوات التدمير ولم يتذرع بعقد تلك الهدنة ويتوصل اليها بدهائه ويماطل ويطاول إلا للاستزادة من التحصين ، واعداد المعدات لمقاومة ذلك الفاتح العظيم الذي خشي ان يتقدم الى صور لمنـــازلة من احتشد فيها من جيوش الصليبيين ويترك الشقيف ورآءه فتنقطع عنـــه الميرة . قال العماد الاصفهاني(٥) بعد ان اتى عـلى ذكر اجتماع ارناط بصلاح الدين وظفره منه بامهاله ثلاثة اشهر لتسليم القلعة « فشرع ارناط في ازالة(٦) حصنه . وازالة وهنه ، وترميم مستهدمه ، وتتميم مستحكمه وتوفير غلاله ، وتوفية رجاله ، وتدبير احواله ، وتكثير امواله ، وقال

«١» الدائرة «٢» بيدكر

«٣» كان هذا المعند كنيسة ومسجداً اخرى يتبع دين الفاتح المتغلب « ٤ » مجلد السنة السادسة من مجلة المقتبس

(٥) فى الفتح القسي (٦) شدة

بعد ذكر معاودته صلاح الدين فى طلب تمديد اجل الهـــدنة واسترابة صلاح الدين من امره ومحاولة ارناط نفي الريبة عنه .

« ثم سأل (ارناط) في ندب من يوثق بامانته ، ويؤمن الى وثاقته ليدخل الموضع ويلمحه ، ويحضر بوصف ما شاهده ويشرحه ، فرجع المندوبون بخبر ما ابصروه ، وذكروا ان الحصن قد غيروه ، وانه قد استجد في سورة باب ، واستمدت له من احكام إحكامه اسباب » .

ولقد اعجزت هذه القلعة بما اجتمع فيها من خصائص التحصـــين الطبيعي والعمراني ، وما ضمه اليها (ارناط) من المنعة والعدة (صلاح الدين) واستمرت على شدة الحصار والمقاومة ممتنعة عليه عاما . ولم تجنح الى التسليم إلا بعد أن فقدت حاميتها الازواد والاعتاد .

لم نجد في المصادر التاريخية العربية والفرنجية التى نرجع اليهـــا في كتابة تاريخها ذكراً للتعمير والتدمير في هذه القلعة من عهد صلاح الدين يوم تسلمها صلحاً . وعهد من وليها بعده وعهـــد الفرنسويين وقد اعيدت اليهم مع قلعة صفد عام ١٢٤٠ م ٦٣٧ هـ باتفاق عقـــده معهم اسماعيل ملك دمشق بتسليمها لهم على ان يكونوا ظهيراً له على ابن أخيه الصالح ايوب عام ١٢٦٠ م ٦٥٩ هـ حيث اشترت فيه رهبنة الهيكليين صيداء والقلعة من بوليانس حاكم صيدا فقد ذكر لها بعضهم (١) خبرا في التعمير حيث قال « وهم بنوا القصر الجديد فيها على ما يظن وهو الذي ترى انقاضه على بعد بضع مئات من الامتار في الجهة الجنوبية .

لا ريب أنه كان لاحجار المناجيق التي كانت تصبها عليهـا جيوش صلاح الدين المحاصرة وتتساقط عليها تساقط الوابل من مرتفعات الجهة

(١) كيران

الشرقية المسامتة لها افاعيل في ما يشرف على الرماة من اعالى حصونها ، وإنما كانت حاميتها ترمم منه ما يتهدم وتعمر ما يدمر .

بقيت بيد الرهبنة الهيكليين الى عام ١٢٦٨ م ٦٦٧هـ وهو العام الذي استولى فيه عليها (بيبرس) بعد حصار شديد . ثم رممت واقيم فيهـــا عساكر من المسلمين للمحافظة (١) .

وقال كيران : استولى بيبرس على محل بلفور (٢) وموقعه بين الحصن والقلعة الجديدة . وبعد ذلك حصونها ملك القلعة واقام فيها عساكره .

لم يرد لها غير ذكر مجمل بفتوحات بيبرس في كتب مؤرخي المسلمين فلم يضموا هذه الحلقة الى سلسلة حوادثها وغاية ما جاء في كلماتهم فتحـه الشقيف مع ما فتحه من حصون بلاد الشام وهو كما ترى مشـترك بين شقيفي ارنون وتيرون وترى ان ما تعزوه دائرة المعـــارف الى الاولى يعزوه ابن سباط (٣) الى الثانية . نعم جاء في فوات الوفيات لابن شاكر (٤) وكانت الشقيف قلعتين مجاورتين فجمع (بيبرس) بينهما وبنى بها جامعا وحماما ودار نيابة .

وبرج الظاهرية الذي كان مقابلا للقلعة ويعرف موقعه واسمه اليوم نسبة الى لقبه (الظاهر) اما لانه هو الذي قد بناه او لانه قد رممه .

تعاقبت عليها ايدي ملوك مصر والشام . ولم تفقد شيئا من حصانتها من عهد استيلاء بيبرس عليها الى عام ١٤٠٠ م ٨٠٣ هـ واستمرت إلى ذلك القرن متماسكة ممتنعة على المتغلبين ملجأ للهاربين .

إن تيمور لنك لما قدم بلاد الشام غازيا فاتحا شرعت الناس في الهزيمة

---

(١) دائرة المعارف

(٢) يقول كيران ويظهر خارج القلعة بقايا بيوت قديمة وهي انقاض قرية بلفور التي بنيت بقربها (٣) الامير حيدر (٤) م١ ص ٩٠

الى القلاع والحصون المنيعة في الضيـــاع . ومنهم من توجه الى قلعة ارنون (١) ومنهم من قصد قلعة شقيف تيرون (٢) .

طوى المؤرخون صحيفة تعميرها وتدميرها من هذا القرن الى اوائل القرن السابع عشر الميلادي والحادي عشر الهجري وهو القرن الذي هبت فيه ريح الامير فخر الدين المعني الثاني وقد شمل حكمه الاقطاعي حيزاً عظيما من بلاد الشام وامتد نفوذه الى البـلاد الاخرى التي لم تدخل في اقطاعه ونبه امره باحلافه وفيهم مثل علي باشا الجنبـــلاطي المعروف وببعض عظماء الدولة العثمانية كمراد باشا . وتدرج الى ان جمع جمعا كبيراً من السكان واستولى على بلاد كثيرة منها صيدا وصفد وبيروت وما في تلك الدائرة من اقطاع كالشقيف وكسروان والمتن والغرب والجرد . وخرج عن طاعة السلطنة . وبالجملة فانه سرى حكمه في بلاد صفد الى انطاكية (٣) وأخذ كثيراً من القلاع من ضواحي دمشق وتصرف في ثلاثين حصنا وبالجملة فقد بلغ مبلغا لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة (٤)

كانت قلعة الشقيف في جملة القلاع التي استولى عليها . وحصنها قبل أن يوغر صدر الدولة عليه وامتنع بها كما امتنع في غيرها عند منـــاوأة خصومه الوطنيين كالسيفيين واضرابهم وغير الوطنيين من رجال الدولة الذين احرج صدورهم وانبروا لخضد شوكته وحسر تيار مطامعه كنصوح باشا والحافظ أحمد باشا والكوجك واضرابهم .

ولما حشدت الدولة جيوشها الكثيفة بقيادة الحافظ ونمي الخبر إليه . علم تغير الدولة عليه في اسلامبول وتأكد تخلف جميع محالفيه عنه في جميع انحاء الشام . فأوجس خيفة من سوء المغبـــة . وشرع تفاديا من

---

(١) في الاصل ارغون (٢) الامير حيدر

(٣) المحبي م ٣ ص ٢٦٧ (٤) المحبي م ١ ص ٢٨٦

وقوعه في يد عدوه الحافظ يرمم ويحصن معاقله . ولا سيما قلاع بانياس (الصبيبة) وشقيف تيرون ، وشقيف أرنون . وجهزها بجميع آلات الدفاع والحصار (١) .

نزل بالمعني من الامر ما ضاق به ذرعا وحدا به الى الارتحال من بلاده الى اوروبا بعد ما شحن قلاعه بالسلاح والرجال وجعلها امنع من عقاب الجو وجمع فيها اخص بطانته وأسرته وحريه واستوثق من حاميـــاتها السكبانيين بأن لا يفتحوا ابوابها لأي متغلب بعده . زحف عليها الحافظ بجيشه اللهام . فرآها ممتنعة على الحصار . فحاصر برج الظاهرية الذي يقابلها ليستطيع الوصول الى محاصرتها . فملكه بعد ان قتل من جيشه خلق كثير واستمرّ الحصار ستين يوما كان فيها إطلاق المدافع متتابعا بلا انقطاع (٢) ولكنه لم ينل منها مأربا . ورفع الحصار عنها بعد اتفاق أبرمته معه والدة الاميرين المعنيين فخر الدين ويونس

ان امتناع هذه القلعة مع اخواتها من قلاع المعنيين على القوات العثمانية المحاصرة ، واعتصامهم بها في مناوأة الولاة واتخاذهم لها ردءاً عند مقارعة خصومهم الكثيرين ، وفشل المحاصرين لهـــا من عظماء الدولة (كالحافظ) (٣) صرف ذلك كله هممهم الى الاستيلاء عليها أو هدمها حتى

«١» مجلة الآثار

«٢» منقول بتصرف عن الآثار وتاريخ الامير حيدر

«٣» يقول المحي في كتابه خلاصة الأثر م ١ ص ٣٨١ ثم ان السلطان « احمد » اتخذه « الحافظ » سرداراً على قتال الامير فخر الدين بن معن وامر كافل حلب وكافل ديار بكر وكافل طرابلس وامراء الاكراد ونحو النصف من السباهية وعساكر دمشق وعساكر حلب الجميع يكونون تبعا له فتوجه بنحو ثلاثـــين الفا وحاصر ابن معن تسعة شهر فلم يقدر أن يأخذ قلعة من القلاع «٣» الامير حيدر باختصار ٦٤٨

لا تكون معتصما للخارجين عليها — إن محمد باشا الوزير الاعظم ومحمد شركس باشا الذي خلف الحافظ على ولاية دمشق لم يكن ليروق في اعينهما بعد رجوع الامير يونس الى حظيرة الطاعة وعفوهما عنه وتأمين أخيه الأمير فخر الدين بالرجوع إلى بلاده الا استلام القــلاع حتى ان الوزير محمد باشا طلب من الامير يونس وهو في حلب تسليمها وبعد مراجعات كثيرة تقرر مع الوزير وحسين اليازجي هدم القلاع فتوجه هذا ومصطفى كتخداوباكيربك والامير يونس الحرفوش (١) الى القلاع وبعد إخراج ما فيها استحضروا بنائين وهدموها واستمروا في هذا العمل نحو اربعين يوما وكان ذلك عام ١٠٢٥هـ ١٦١٦م

وفي كتاب أخبار الأعيان (٢) (وسنة ٦١٦) طلب من الامير يونس قائد الخمسين جنديا (٣) الذي ارسله جركس باشا الى حصن ارنون وحصن تيرون محافظا ان يخرج رجاله العرب منهما فشق ذلك على الامير وأمر بهدمهما فلما بلغ الوزير ذلك سرجداً وامر بخرابهما فدكوهما دكا الى الارض .

واما المحبي (٤) فقد روى الخبر بما هذا محصله وهو انه لما عزل الحافظ عن ولاية الشام خرج كيوان من صيدا وحده وترك ابن معن في بلاد الفرنج ليكشف له الحال فرأى محمد باشا الوزير قد صار سردارا على العجم ونزل حلب واراد تصحيح امر الشام فخرج اليه الامير يونس بن الحرفوش امير بعلبك و كيوان وتوافقا معه على ان يهدما قلعة الشقيف وقلعة بانياس ويسلما اليه مالا وتعطي البلاد لابنه الأمير علي وطلب الامان للأمير فخر الدين وفي ذخائر لبنـــان ان الامير علي بن الامير فخر الدين هـو الذي هدم قلعتي ارنون وتيرون .

«١» الامير حيدر باختصار ص ٦٤٨ «٢» ص ٢٧١ «٣» عين محافظا على القلعتين بالتماس الامير يونس «٤» خلاصة الاثر م ٣ ص ٣٠٢

واما السانح كيران فقد اختزل الكلام عنها من عهد الامير فخر الدين المعني وجاء في خاتمة ما كتبه عنهاما هذا محصله : « وفي ابتدآء القرن السابع عشر (الميلادي) اوجد فيها فخر الدين المعني بعض الاصلاح واهملت من ذلك الوقت (١)

واما المؤرخان الامير حيدر الشهابي وصاحب أخبار الأعيان فقد طويا اسم هذه القلعة وحديث تعميرها وتدميرها وما منيت به من الاحداث من عام ١٠٢٥هـ ١٦١٦م الى عام ١١٨٣هـ ١٧٦٩ وهي مدة تتجاوز القرن ونصف القرن تداولت خلالها احكام البلاد المنسوبة اليها (بلاد الشقيف) بين الحكام الاقطاعيين من أمرآء جبل عاملة ومن غيرهم .

وانت خبير ان طيهما صحيفتها التاريخية في هذا الأمد البعيد طي الصحف المنسية لا يجعلها منسية عند أمرآء ذلك العهد وهم احوج الى اقامة المعاقل والحصون حماية لبلادهم التي كانت مستهدفة لمطامع المتغلبين من أمرآء مجاوريها وفوضى الولاة العثمانيين ضاربة اطنابها في عرض القطر الشامي وطوله . وهمّ اولئك الولاة تمزيق شمله كل ممزق وتفريق سكانه الى شيع واحزاب يسطو قويهم بضعيفهم ارتياداً لمنافعهم الخاصة وتطبيقا لقاعدة (فرق تسد) تلك القاعدة المتبعة عندهم . لا جرم ان من المحتوم على أمرآء جبل عامل وهم تحت افاعيل هذه السياسة وتلك المؤثرات ان لا يدعوا قلاعهم وفي طليعتها قلعة الشقيف الشمآء غفلا عن التعمير وهي من امتع ما يعتصمون به في ميدان التنازع المستمر في تلك الايام العصيبة.

على ان الامير حيدر وان اهمل ذكر هذه القلعة واخواتها في ذلك الامد الطويل صراحة فقد جآء فيه ضمنا ما يشعر بعمرانها في الجملة خلال تلك الازمنة حيث قال :

«١» ساح هذه البلاد منتصف القرن الثالث عشر الهجري والثامن عشر ميلادي

وكان الشيخ ظاهر عمر متفقا مع مشايخ المتاولة « الشيعة » حكام مدينة صور وبلاد بشارة . وكان في تلك الايام اعظمهم جاها . واكثرهم مالا ورجالا الشيخ ناصيف النصار وكان تحت يده حصون منيعة ، وابطال اشدآء ، فطابت لهم الايام ، وغفلت عنهم حكام بلاد الشوف من الغارات والغزوات المعتادة بينهم

تولى امرة جبل عامل أمرآء منه كانوا مستقلين في ادارته يتولونه التزاما بطريقة الحكم الاقطاعي تلك الطريقة المعروفة في القرون الاخيرة ويرجعون في اموره السياسية وفي تأدية اموال الالتزام الى نواب السلطنة الذين كانوا يكونون في بلاد الشام نوابا للمتغلبين على حكمها من سلاطين مصر وسلاطين العثمانيين من عهد استيلائهم على ديار الشام الى العهد الذي انقلب فيه شكل تلك الادارة المختلة الى الشكل الاخير المنظم .

إن اقدم امرآء جبل عامل الذين يدور ذكرهم على الالسنة ويتناقل حديث امرتهم عليه الخلف عن السلف هم (بنو سودون) واليهم تنسب عين (ابو سودون) في وادي الحجير المعروف ثم آل الصغير والسادة الشكرية وآل صعب وآل منكر. وآل الزين (١) اما بنو سودون فقد انقرضوا وباد اسمهم وحديثهم اشبه بصورة. وكانوا في عهد نواب السلطنة المصرية في دمشق واما بنو شكر فقد انتزعوا من الصغيريين حكم بلاد بشارة حيناً من الدهر . وكانت قاعدتهم قلعة تبنين. ثم استردها منهم آل الصغير

«١» ولي حكم بلاد بشارة من هذه الاسرة رجلان الاول الشيخ زين والثاني الشيخ على وهو الذي ذهب مغاضبا من الجزار واقام في الهند واستوزر لأحد ملوكها كما ان الحاج طالب الزين كان متسلم صور من عهد غير بعيد .

واقتسم الاسر الثلاث الصغيرية والصعبية والمنكرية حكم البلاد . فكان القسم الجنوبي منها وهو ما يفصله الليطاني عن القسم الشمالي، والمعروف ببلاد بشارة القبلية ، والمتاخم جنوبا عكاء وصفد ، وشرقا الحولة ومنبع نهر الحاصباني وغربا البحر المتوسط سهما للاسرة الاولى منقسما بين رجالها. والقسم الشمالي من الاولي او من ساحل صيداء شمالا الى الليطاني جنوبا وما بين غربي لبنان والبحر المتوسط شرقا وغربا مقتسما بين رجال امرتي صعب ومنكر . فكانت مقاطعة الشقيف للاسرة الاولى ، واقليما التفاح التفاح والشومر للثانية . وما في تلك المقاطعات من قـــلاع متداعية، وحصون مهدمة ، قام رجال تلك الاسر باعادة بنائه ، وترميم مستهدمه واحدثوا حصونا جديدة تدفع عن بلادهم غارات اعدائهم الكثيرين .

اما تاريخ ترميم قديمها واحداث جديدها فيرجع زمنه على ما عثرنا عليه ، بعد التنقيب من مظان كثيرة من نتف مبددة اكل الدهر عليها وشرب وسلمت من ايدي الضياع الى منتصف القرن الثاني عشر الهجري تقريبا . ففي وريقات حوت حوادث ذلك القرن تقريبا « أن احمد منصور واحمد فارس ، اقاما في قلعة الشقيف عام ١١٥١ هـ ١٧٣٨ م فعمراها واحدثا فيها بوابة ، وقتل حسين الشاهين وخرجا منها »

وقال الشيخ علي رضا وهو ممن كتبوا تاريخ ذلك القرن بلغة عامية « إن الصعبية قبضوا عام ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ م) على الشيخ محمد فارس ووضعوه في قلعة ارنون » ومن عهد تعميرهـــا الى عام ١١٩٥ اورد حديثهما وحديث حكامها الصعبيين من كتبوا تاريخ هاتيك الايام .

اما الاسرة الصعبية على ما افادنيه بعض اعيانها فهو بهاء الدين من

اعقاب الافضل نور الدين الايوبي أقام في دير عجلتون «١» مرابطا في سريتين من الجند واليه ينتمي جد الصعبية علي صعب «٢» ومن احفاده الشيخان علي «١» وحيدر «٢» ابنا احمد بن حيدر بن فارس . وفي ايامهما ازدهر عمران قلعة الشقيف واستعادت سامق مجدها ، وسابق عزهـــا وسالف عهدها ، كما ازدهرت قلاع تبنين وهونين ومارون وشمع ودوبيه في البشارة القبلية «٣» وحصن جبع «٤» وقلعة ميس «٥» فامتنع جبل عامل بهذه القلاع والحصون وبفرسانه الذين كانوا يناهزون عشرة آلاف فارس «٦» وظلت قلعة الشقيف زاهية زاهرة ممتنعة على الحصار مـــن عهد تعميرها عام ١١٥١ هـ ١٧٣٨ م كما سبق البيان الى عـام ١١٩٥ هـ

---

(١) موقعه على هضبة بين الجرمق وقرية كفرمان متوسطا بينهما وعلى بعد ميلين من كلا القريتين مشرفا على نبع الماذنة (٢) اما تلقبه بصعب فيذكرون له سببا وهو انه بينما كان هو وبعض رجاله في ميدان الجرمق وبعض رجال الجرمق من الدروز يتثاقفون على ظهور خيلهم في الترامي بالعصي (الجريد) رمى فارسا من الدروز بعصا فاصابت منه مقتلا فدهش المتثاقفون من قوته وقالوا ان هذا الضرب صعب فلقب لذلك بصعب .

(١) ن احفاده بكوات المروانية (٢) من اعقابه بكوات النبطية ومشايخ الصار وكفر رمان والبابلية (٣) كان حاكمها في ذلك الشيخ ناصيف النصار السير (٤) لا يزال بعض ابنيته قائما في قرية جبع قاعدة التفاح وقد اتخذ في هذه الايام مدرسة بعد ان أدخل فيه بعض ألاصلاح كان هذا الحصن في يد المناكر وهم الذين احدثوه (٥) على مقربة من الزرارية وظن بعض الفضلاء انها هي قلعة ابى الحسن التي ذكرت في حروب صلاح الدين الايوبى قائمة على هضبة وعلى مقربة منها عين سميت عين الحاج حسن كانت تحت يد الحكام المنكريين وهم الذين رمموها وهذا وهم فان قلعة أبي الحسن من اعمال جزين بينها وبين صيداء

(٦) عن مقال المؤرخ جرجى يني صاحب تاريخ سورية نشره فى مجلة المقتطف الشهيرة.

١٧٨٠ م الذي باغت فيه الجزار امير بلاد بشارة ناصيف النصار بخيـله ورجله قبل أن يستجمع قواته فقابل عسكر الجزار بفئة قليلة فلم تلبث أن تشتت شملها وتفرق جمعها . وقتل ناصيف واخوه ابو حمد «١» فعاثت عساكر الجزار في البلاد واستولوا على قلعتي تبنين وهونين وبعد محاصرة الشيخ حيدر الفارس في قلعة الشقيف شهرين «٢» استولوا عليها سلماً وصادروا كل ما في القلعة وهدموها .

إن من كتب تاريخ ذلك القرن من العامليين أرخ وقوع هـــذا الحادث الخطير في هذا العام ولكن الامير حيدر أرخه في عام ١١٩٧ هـ ١٧٨٢ م «٣»

وسنة ١٨٣٧ م (١٢٥٢ هـ) هدم اعلاها بالزلزلة الشديدة التي هدمت صفد والجش وغيرهما من الاماكن وفقدت اهميتها واخذ اهالي النواحي المجاورة ينقلون حجارتها ويبنون بها بيوتهم . وصارت تلك القلعة العظيمة وقاعاتها الجميلة الـــتي كانت مسكنا للامراء والاشراف خرابا ومأوى للرعاة والماشية «٤» .

---

(١) قال الامير حيدر الشهابي (وكان يعد في الحرب بالف فارس قتل ابو حمــد هذا وابن اخيه قاسم المراد بوقعة في الجولات بينه وبين عرب غزة سنة ١١٩٣ اي قبل مقتل اخيه الشيخ ناصيف بسنتين

(٢) هكذا جاء في بعض المخطوطات واما الامير حيدر فقد قال وحاصروا قلعة شقيف ارنون وكان بها الشيخ حيدر الفارض وبعد ايام سلم فأخذوها بالامان

(٣) م ١ ٨١ «٤» الدائرة م ٣ ص ٣٥٥

ويقال ان باب قلعتها الحديدي العظيم نقل منها الى عـكاء ايام نكبة الجزار امراء البلاد وتدمير قلاعهم وانه جعل بابا لمدينة عكاء .

وقد نقل الشيخ حسن الفارس الصعبي جانبا من احجارها الملونة الى قريته البابلية زين بها بعض المباني التي احدثها فيها «١» .

إن التدمير لم يطل غير اعالي القلعة وبعض ابراجها واسوارها واما ما تحتها من الابنية الفخمة فلم تكن لتنال أو تستطال .

«١» كان ذلك أوائل القرن الثالث عشر الهجري بعد نكبة ابيه الشيخ حيدر وعمه الشيخ علي .

٣

التعريف بعظمتها الطبيعية والعمرانية

لم نر من مؤرخي العرب من وصف قلعة الشقيف وصفا ممتعا يناسب مكانتها العمرانية ، وموقعها الطبيعي ويوقر في نفوس محبي الفن والجمال معناهما الماثل فيها والآخذ بمجامع القلوب ، ويملي عليها بدائع ما افرغته فيها قرائح بناتها من الرواء العمراني المتناسق الى روعتها الطبيعية ، وما انضم اليهما من وضعها الحربي الذي هو آية في التحصين ، ونهاية الابداع في الامتناع على كل من يحاول الاستيلاء عليها عنوة .

وجل ما كتبه مؤرخو العرب في وصفها والتعريف بها وهو ما كان من متناول أيدينا لا يعدو الجمل الآتية :

سار صلاح الدين الى شقيف (ارنوم)وهو من امنع الحصون (١) . والشقيف كالكهف أضيف الى ارنون اسم رجل إما رومي واما افرنجي ، وهو قلعة حصينة جداً في كهف الجبل قرب بانياس (٢) .

وجدد عزمه (صلاح الدين) على قصد شقيف أرنون وهو موضع حصين قرب بانياس (٣) .

ويعرف ايضا بالشقيف الكبير وهو حصن بين دمشق والساحل

«١» الكامل لابن الاثير وقد ابدل الميم بالنون ؛
«٢» معجم البلدان ومراصد الاطلاع لياقوت «٣» المشترك
«٤» ابن شداد «٥» وفيات الاعيان لابن خلكان

بعضه مغارة منحوتة في الصخر ، وبعضه له سور ، وهو في غاية الحصانة (١) .

ثم خرج (صلاح الدين) الى شقيف ارنون ، وهو موضع حصين فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف(٢) .

وبالقرب منها (قلعة تيرون) على خمسة فراسخ قلعة ارنون وهي ايضا حصينة جداً (٣) .

وبالجملة فان كل من تعرض لذكرها ممن عاصروا عمرانها ، ومن جاء بعدهم لم يجاوزوا في وصفها والتعريف بها هذه المضامين . وهي ان أفادت فائدة فلم تزد على ان ميزت (الشقيف) احد اسمائها مجردا عن الاضافة الى (ارنون) عن مسميات كثيرة تشاركها فيه . وما وراء ذلك من التعريف بأبنيتها الفخمة ووصف أوضاعها الهندسية الدقيقة . وما بولغ فيه من تحصينها . وجعلها أمنع من عقاب الجو على كل غاز ومتغلب فقد اغفل ذلك كله المؤرخون لحوادث أيامها وقد شاهدوا بأم العين آيات عظمتها ، وهي في ابهة عمرانها يتاح لهم الوقوف على ما أبدعه فيها فن عقود الابنية من الاحكام ، وما افرغه (علم الهندسة) من الانتظام ، مضافا الى ما اختصت به من موقعها من روعة الاعظام ؛ فهل قعد بهم العجز عن وصف ما اجتمع فيها من من البدائع حيث شاهدوا فيها معنى الجمال الذي يدرك ولا يوصف فشغلهم استهواؤهم بروائه واستسلامهم لروعته عن وصفها فسكتوا عنه واجمين مفحمين .

رافق السلطان صلاح الدين من كان يحصي انفاسه ويقيد له كل شاردة

«١» ابن سباط «٢» ابن خلكان «٣» ابن خلكان

ووارده أمثال القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن شـــداد من ائمة البلاغة وأقطاب الكتابة ورواد التاريخ فلم يغادروا من أعمـاله صغيرة ولا كبيرة الا وقد احصوها . ولا الغرر والحجول من أيامـــه الا وقد قيدوها ، ولا حديثا من احاديث فتوحاته الا رووه مصححـاً ممحصاً ، ولا حادثا من حوادث الديار التي جاس خلالها بخيله ورجله والحصون التي افترع ابكارها وعونها بمنجنيقـــاته ، الا وقد ذكروه مفصلا ، ولا مهبطا هبطه بجنده الباسل . ومصعدا اصعده بفيالقه المنصورة الا وكان لهم من وصفه المعجب المطرب .

فكيف يقعدهم العجز عن وصف هذه القلعة . والاشـادة بمحاسنهـا ، والتنويه بجلالها الذي يثير كامن القرائح ويدع العي بليغا ، والمفحم شاعراً .

وقد جاء بعدهم من حملة الاقلام من لا يقصر عن الجري في حلبتهم ، وصحب مثل من صحبوا من الملوك الذين وقعت في أيديهم ، ورأى من مبدع عمرانها ، ومعجز بنيانها ما رأوه فلم يتخط في وصفها وصفهم الموجز بل كان لهم تابعا ولعل مؤرخي الصليبيين الذين شاهدوا وقد وقعت في قبضتهم ما شاهده كتاب المسلمين لم يغفلوا وصفها .

لا جرم انهم لم يحجموا عن وصفها هذا الاحجام افحاما وعيا ، ولا كان تركهم التعريف بها عمدا وقصداً ، والذي يلوح لنا من تعليل ذلك ان المتغلبين عليها هم الذين حالوا بينهم وبين ما يشتهون لمـا يؤدي ذلك من الادلال على عوراتها ، وكشف أسرارها للعـــدو وذلك مما يقتضيه العرف الحربي وخطط الدفاع فبقيت وهي حافلة بعمرانها ، آهله بحاميتها سرا في ضمير الدهر مكتوما ، ممتنعة على الصحـائف والقرائح . امتناعها على بيض الصفائح ، متعاصية على تعريف المعرفين ووصف الواصفين .

عصيانها على منجنيقات المحاصرين ، وجيوش الغزاة الفاتحين ، ولم تلن لواصفيها شكيمتهـا ، الا بعد ان فلت خطوب الدهر عزيمتها ، وثلت ايدي المتغلبين المتعاقبين عليها أخذا وردا عروشهـا ، فأصبحت اثرا من الآثار ، وخبرا من الاخبار ، طامسة الاعلام مطويا كثير من صحـائف عمرانها تحت انقاضها المتراكمة يرتادها الزائرون من امم شتى ، وهواة الاثار القديمة الدارســة من قريب وبعيد .

لم يبلغ منها الرواد والسائحون حاجتهم ، والباحثون وطرهم الا بعد ظفر الجزار بحكام جبل عامـــل ، ووضع يده على حصونهم وتدميرها ، واعراض الولاة العثمانيين بعد ادالتهم حكم الوطنيين وزوال اقطاعيتهم عن البلاد عن تجديدها وتعميرها .

طويت صحيفة عمرانها من ذلك العهد . وقضت عليها السياسة العثمانية ان تبقى مطوية الى الابد ، ولكنها لم تطو اسمهـــا من سجل التاريخ الحافل بأخبارها كما لم تقض على كل ما فيها من الابنيه الضخمة الشاهدة الى على ما أبدعته فيها أيدي البناء ، تركت فيها صحيفة مفعمة بنفائس الآثار بما استبقت عليه من ذماء روعتها . ودلائل عظمتها ، وقد ارتفع الحجر على الباحثين الاوروبيين .

زار هذه البلاد كثير من باحثيهم وزيارة هذه القلعة من أولى خططهم لشهرتها الواسعة في الحروب الصليبية ولتداول الاستيلاء عليها بين العرب واجدادهم فـكان من زائريها في عهد الجزار فولنه الفرنسوي (١) وقد

«١» كنا أوردنا اسم فولتير بدلا من فولنه فنبهتنا مجلة المشرق الى هذا الخطأ فلها الشكر .

وقفنا على طرف من رحلته نقلته الى العربية مجلة المباحث وفيه الماع الى كثير من حوادث تلك الايام . والمام باديان القطر السوري ومذاهب سكانه . وابحاث عن موقف البلاد (ومنها جبل عامل) العلمي والزراعي والاقتصادي والعمراني والاخلاقي . ولكننا لم نر في ما نقلته المباحث ذكراً لقلعة الشقيف . ولعلها كانت في ذلك الحين في قبضة الحكـــام العامليين عامرة بأبطالهم محجوبة عن الزائرين . وان ما كتب عنها لا يرجع العهد به على ما هو المظنون الى ما يجاوز أواسط القرن التاسع عشر الميلادي وهو الزمن الذي زار فيه سورية كيران السائح الفرنسي ولعله أول من كتب وصفها والتعريف بابنيتها وأوضاعها من كتاب الفرنج الذين انسلوا اليها من كل حدب وصوب ، وهذا تعريب ما كتبه :

لهذه القلعة مدخل واحد من الجنوب ، وشكلهـــا مثلث الزوايا ، وقياسها ١٦٠ مترا طولا و١٠٠م عرض تقريباً . يحيط بها من بقية جهاتها آبار منقورة في الصخر . ويحميها من الجهة الشرقية مسيل ماء مهيب يسمى (نهر الليطاني) تسيل مياهه على عدة امتار منهـــا الى الحضيض ، وفي الجنوب خارجا يوجد حوض في الصخر . وفي الغرب صهاريج فيها أحواض جمة منقورة في الصخر الصلد مسقوفة بعقود حجرية وفي الشمال حوض قسم منه منقور في الصخر ، وقسم يقوم عليه بناء . وبجدرانها المحيطة بها منحدرة وفي داخل القلعة أحواض كثيرة كان يجتمع فيها من المياه ما يسد أعواز المحصورين مدة الحصار .

وهي تنقسم الى قسمين قسم منخفض يحده من الجهة الشرقية عقاب الليطاني وهي بعيدة المهوى صعبة المرتقى . وقسم مرتفع مبني على قمة الصخر الملساء العليا ولا تزال قائمة فيها أبراج من القديم تميـل عموديا الى الاودية

المحدقة بها . وفي القلعة ابهاء (صالات) وحوانيت وغرف متلاصقة يفصل بينها ممر مسقوف بعقود .

وفيها طبقان ببناء مختلف يستدل منه على قدمها . والمتهدم منها نحو ثلاثة أرباعها . والقسم المرتفع الممتد الى الجهة الغربية يظهر منه من الجهة الجنوبية بقايا برجين مستديرين جميلين . وهو مبني بحجارة كبيرة قائم على حائط منحدر قد بني على حجارة صقيلة يصعب بل يتعذر على الانســان تسلقها . والجهة الغربية عبارة عن جدار عال متناهٍ في الغلظ . وركائزه السفلى قائمة على الصخر منضدة من حجارة ضخمة غالبها منحوت . واما الساف (جمع سافة) العلا (المداميك) فهي اصغر من السفلى . ويظهر أنها حديثة البناء وفيها درج منحوت في الصخر يصل بعضها ببعض «١» .

واليك خلاصة ما جاء في دائرة المعارف من وصفها «٢» « وفي الطريق من القرية (ارنون) الى القلعة بركة كبيرة متينة البناء ، واقعة على سفح التل ، وبالقرب منها آثار قرية كانت تابعة للقلعة ، يحيط بها سور وبرجان مستديران والى الجنوب الغربي منها فسحة من الارض مستوية يظن انهـا كانت ميدانا للعساكر » .

ومدخل القلعة الكبير هو من الجهة الجنوبية ، ولم تزل هناك اثار حوض جميل متصل بالخندق المحفور في حجر صلب في الجهة الغربية وجانب القلعة الجنوبي ، وليس لباقي جهاتها خندق لان استحالة الوصول اليها من جهة أخرى أغنتها عن ذلك . ثم ان قنة التل ضيقة جداً حتى أن القلعة أعرض منها . وكان يدخل اليها على جسر متنقل في جنوبهـا . وهناك

«١» ملخص عن مجلة عربها لنا صاحب العرفان
«٢» م ٢ ص ٢٠٤

آثار ابنية يظن انها كانت اصطبلات أقامها الصليبيون . وبالقرب من الزاوية الشرقية ابنية متصلة بأعلى القلعة كان يدخل منها اليها .

« والقلعة مستطيلة وضيقة جداً بحسب الارض التي بنيت عليها فلا مناسبة بين طولها وعرضها » (١) .

« واما حجارتها فكلها مربعة الزوايا إلا أنها ليست بكبيرة كالحجارة في القدس وبعلبك ، ولا محكمة النحت نظيرها إلا انها تشبهها مشابهة عمومية . ووسط وجهها الخارجي خشن غير منحوت . وهي ألين من حجارة القدس ولذلك قد أثر فيها الهواء مع تمادي الزمان .

« وفي القلعة عدة أبراج مربعة بارزة . والى الجهة الجنوبية الغربية منها برج مستدير أساساته مستديرة مائلة ، ولذلك كله منظر جميل ، وكان الى شرقي البرج المذكور باب صغير بقنطرة مستديرة من حجارة محكمة النحت ذات نقوش ظريفة ، وجدران القلعة متينة ومرتفعة . وارتفاعها عن الخندق من ٦٠ الى ٨٠ قدما . وطولها نحو ٨٠٠ قدم . وعرضها مختلف لا يتجاوز معظمه ٣٠٠ قدم » .

وجاء في وصفها عن بيدكر (١) ما هذا موضع الحاجة منه :

« وهي محاطة من الجنوب ومن الغرب بهوة عميقة محفورة في الصخر عمقها ١٥ مترا الى ٣٦ مترا . ومن الجنوب فقط تتصل القلعة بذروة الجبل ومدخلها الى الجنوب الشرقي وطولها ١٢٠ متراً . وعمقها ٣٥ ومن

«١» تركنا شيئاً مما جاء في الدائرة من وصفها الذكره في موضعه من احد اقسام تاريخنا واعدنا بعض ماذكرنا . هناك لعلاقته بهذا القسم.

«١» مجلة المقتبس

طرفها الشمالي بناء ثاني . طوله ٢١ مترا متجها الى الشرق . وفناؤها أو صحنها في الجهة الشرقية منها عمقه نحو ١٦ مترا . ومثلها الابنية الخارجة ولها انحدار يختلف من ستة الى ٩ امتار . وقد قام على الحائط الجنوبي برجان على شكل نصف دائرة .

ان في الشقيف العظيم القائمة عليه هذه القلعة الشماء كهفاً متسعا جداً يتخذه رعاة القرى المجاورة لها زريبة (مأوى) الى ماشيتهم ايام الشتاء ومدخله شرقيها حيث المنحدر المسمى المزحلق .

« وفي الشرق الشمالي منها عند حضيض الجبل القائمة عليه آثار حمام يزعم الكثيرون انه كان تابعا لها .

ويدور على ألسنة البعض من سكان قرى الشقيف المجاورة لها أن فيها نفقا مثقوبا في الجبل القائمة عليه ينتهي عند حضيضه حيث مجرى الليطاني وان حاميتها كانت تستقي من مياهه ايام الحصار . ويزعم بعضهم ان من آبائهم من شاهد بأم عينيه مدخل ذلك النفق . ومشى فيه مسافة عقود من الامتار . ولم يبلغ منتهاه لحيلولة الردم دونه ودون مبتغاه ، وهو زعم يدفعه ما اشتملت عليه القلعة داخلاوخارجامن الصهاريج والاحواض والآبار ما يربو على حاجة المحصورين مهما طالت مدة الحصار .

« وبعد فان ما وصفت به مباني القلعة لم يتناول الا القائم منها والسالم من فتكة الدهر . واما الداثر والمتردم تحت الانقاض . وخاصة الذي الذي كان في القسم الجنوبي منها فانه لم تزل مطوية صحيفة البحث عنه طيه تحت الثرى محجوبا عن انظار الباحثين » .

٤

بين الاعمال والولايات والنيابات

كانت قلعة الشقيف تتبع بموقفها الاداري سياسة الغالب وموقفه في البلاد التي تشرف عليها من الساحل والجبل.

فكانت مرة عملا لبانياس قاعدة وادي التيم واخرى عملا للقدس. وثالثة لصيداء ورابعة لصفد، وتارة مركزاً لاعمال عظيمة، وطوراً قاعدة للمملكة الشقيفية، وآونة ولاية، وحينا نيابة، ووقتا محافظة. وكانت تتسع رقعة ما يلتحق بها وتضيق تبعا لمقتضيات ادارة الغالب.

قد سبق لنا كلام في تضاعيف هذا التاريخ بترجيح قيام هذه القلعة قبل الغزوة الاولى الصليبية لديار الشام. وانها كانت قبل ذلك العهد وفيه من اعمال خلفاء مصر ومن اعمال السلاجقة فيه.

اما المراكز التي كانت من أعمالها في تلك الايام فلا سبيل إلى معرفتها بالتحقيق ولكننا نستطيع ان نرجح التحاقها باعمال وادي التيم حوالي اوائل القرن السادس الهجري والقرن الحادي عشر الميلادي مستندين في ذلك على امرين ترجيح قيامها قبل الغزوة الاولى الصليبية، ووقوع جبل عامل على ما جاء في تاريخ الامير حيدر في قبضة ابى الضحاك ابن جندل البقاعي أمير وادي التيم وقد اتصل به هذا العمل من جده جندل الذي كان مقدما في الدولة الفاطمية وولي في ايامها اعمال وادي التيم وبقيت له في حياته، ولبنيه بعد وفاته الى ان ظهر من ذرية جندل ابو الضحاك المذكور وكان شجاعا ذا تدبير. واستولى على بلاد عامل وضمها الى بلاد

وادي التيم ولما توفي قام بعده ولده الضحاك وتولى على ما كان في يد ابيه. وكان من اعماله حصن شقيف تيرون ومنه اخذه عنوة شمس الملوك صاحب دمشق عام ٥٢٨هـ ١١٣٣م اما خبر استيلاء ابي الضحاك على جبل عامل فلم نجد من تعرض لذكره غير الامير حيدر.

وفي كلام كيران (انها وقعت في قبضة فولك ملك القدس عام ٥٣٤هـ ١١٣٤م) ما يشعر بعمرانها حين وقوعها في قبضته. وعدم ورود ذكر لها قبل هذا التاريخ في اخبار استيلاء الصليبيين على المدائن التي تقضي السياسة ان تكون قواعد ترجع اليها في عملها كصيداء التي فتحوها عام ٥٠٤هـ ١١١٠م وصور التي اصبحت في قبضتهم عام ٥١٨هـ ١١٢٥م وصفد التي وقعت في يدهم عام ٤٩٥هـ ١١٠١م يرجح التحاقها بأعمال وادي التيم التي كانت لا تزال تحت احكام المسلمين في ذلك الحين. واما استيلاء الصليبيين على بانياس قاعدة ذلك العمل فقد كان عام ٥٤٣هـ ١١٤٨م أي بعد زمن وقوع قلعة الشقيف في يدهم بأربع سنوات.

ويظهر مما اورده الشهابي في تاريخه والشدياق في اخباره من سبب ارتحال الامرآء الشهابيين من ديارهم الحورانية الى وادي التيم الذي كانت اعماله تحت الحكم الصليبي ان قلعة الشقيف كانت قاعدة اعمال جبل عامل عام ٥٦٨هـ ١١٧٢م وهو الزمن الذي نزل فيه الشهابيون بقبائلهم في وادي التيم وكان الصليبيون قد جعلوا مقر اعمالهم حاصبيا وحصنوها بالآلات الحربية ولما سمع الافرنج بنزولهم في وادي التيم جمعوا جموعهم وكانوا نحو خمسين الفا ما بين فارس وراجل وكان بطريقهم الكبير يقال له قنطورا (الكونت اورا) واستمد من دفاتر الافرنجي صاحب قلعة

الشقيف خمسة عشر الفا. وكان البطريق الذي في قلعة الشقيف يحكم على جميع بلاد عامل سهلها والجبل من ساحل صيداء الى عكاء (١) .

وعام ٥٨٥هـ ١١٨٩م وهو العام الذي جاء فيه صلاح الدين محاصراً كانت من اعمال صيداء ومن عمل صاحبها اذ ذاك ارناط (ارنلد).

قال العماد الاصفهاني في الفتح القسي « وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها ، وبرح بالقلوب برحها ، من عمل صيداء قلعة ابي الحسن وشقيف ارنون » .

اما مقامها من الاعمال في عهد استيلاء صلاح الدين عليها الى عـــام ٦٣٧هـ ١٢٢٠م وهو الزمن الذي اعيدت فيه مع قلعة صفد الى الصليبيين فلم نجد في كلمات المؤرخين ما يعتمد عليه في معرفته بالتحقيق. والظاهر انها كانت تتبع صيداء في العهدين الصلاحي والصليبي حتى عـــام ٦٥٩هـ ١٢٦٠م وهو العام الذي اشتراها فيه الفرسان الهيكليون مع صيداء من صاحبها جوليان .

ولما خلفت الدولة التركية الدولة الايوبية في مصر وديار الشام (٢) « وقـــد تنقحت المملكة وترتبت ، فأخذت الزيادة في تحسين الترتيب وتنضيد الملك، وقيام ابهته، ونقلت عن كل مملكة احسن ما فيها فسلكت

«١» هذا ما جاء في تاريخ الامير حيدر واما صاحب اخبار الاعيان فانه قد اجـــل هذا التفصيل حيث قال وطلب الامداد من دفاتر صاحب قلعة الشقيف وما يليها .

«٢» كان ذلك عام ٦٤٨هـ ١٢٥٠م

سبيله ونسجت عـلى منواله حتى تهذبت وترتبت احسن ترتيب وفاقت سائر الممالك ، وفخر ملكها على سائر الملوك (١)

أدركت هذه القلعة ما تستحقه من الترتيب وقد اصبحت في قبضة الرابع من ملوكها وهو الملك (الظاهر بيبرس) البندقداري (٢) وقد انتزعها من الفرسان الهيكليين عام ٦٦٧هـ ١٢٦٨م وهو اول من جعل فيها دار نيابة. ويظهر مما جاء في نسخة عقد الهدنة بينه وبين ملكة (٣) بيروت في السنة التي استولى فيها على القلعة وهي سنة ٦٦٧هـ ١٢٦٩م « والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها (٤) انها جعلت قاعدة لمملكة تسمت باسمها . وكذلك يظهر من نسخة الهدنة التي عقدت بـين السلطان الملك المنصور (قلاوون) الصالحي صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وولده الملك الصالح علي ولي عهده ، وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام في شهور سنة ٦٨٢هـ ١٢٨٣م » والشقيف المحروس المعروف بشقيف ارنون وما معه من البلاد والاعمال ومـا هو منسوب اليه (٥) انها كانت قاعدة اعمال مستقلة ولم تكن في ذينك العهدين الظاهري والصالحي لا من اعمال صيداء ولا من اعماله صفد .

اما تحديد الزمن الذي التحقت فيه اعمالها بصفد فلا سبيل اليه والراجح انه كان في اوائل القرن الثامن الهجري .

«١» صبح الاعشى ج ٤ ص ٦

«٢» ولي الملك عام ٦٥٨هـ ١٢٥٩م وتوفي بدمشق سنة ٦٧٦هـ ١٢٧٨م

«٣» هي ماركريتا ارملة يوحنا دومنتفرات

«٤» صبح الاعشى ج ١٤ ص ٤٠ جاء ذكرها بهذا اللفظ في مقام تعداد ممالك المتهادنين المرتبطة بصلة المنافع والمرافق وان المترددين من مجموع البلادين منها واليها آمنون مطمئنون على نفوسهم واموالهم وبضائعهم

«٥» صبح الاعشى ج ١٤ ص ٥٢

وقال القلقشندلي في كتابه صبح الاعشى عند ذكره نواحي صفد واعمالها : وليس في أعمالها نيابة اصلا . وقد ذكر لها في مسالك الابصار احدعشر عملاً (١) وعد الشقيف العمل العاشر منها .

وقال القلقشندي في كتابه صبح الاعشى عند ذكره نواحي صفد واعمالها : (وليست من بلاد صفد) . وقال في اخر هذه الجملة : « قلت واقتصر في التعريف على ولاية بر صفد ، وولاية الشقيف وولاية جنين وولاية عكا وولاية الناصرة وولاية صور من غير زيادة) (١) وقال عند ذكر العمل الرابع وهو تبنين وهونين : وجعل العثماني في تاريخ صفد قلعة هونين من اعمال قلعة الشقيف .

وقال في ترتيب النيابات وليس باعمالها (صفد) نيابة بل كلها ولايات اجناد من قبل نائب صفد ، وهي احدى عشرة ولاية ، وعد الشقيف العاشرة منها .

وفي التعريف بالمصطلح (وكان له « الشقيف » بر وله والٍ كما كان لغيره من البلاد المشهورة) .

أما شيخ الربوة وهو من رجال القرن الثامن الهجري فانه لم يرد في بحثه الذي تعرض به لجبل عاملة وجباله وقلاعه ذكر لقلعة الشقيف البتة .

هذا ما وقفنا عليه وما استنتجناه من كلمات المؤرخين في ما يتعلق بموقفها في الاعمال والنيابات والولايات في مدى ثلاثة قرون ونيف من اوائل القرن السادس الى اوائل القرن التاسع الهجري.

واما موقفها بعد هذا العهد فقد طويت صحيفة البحث عنه الى اوائل القرن الحادي عشر الهجري والسادس عشر الميلادي وهو القرن الذي

«١» صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٥٠ «٢» فيه ص ١٥٥

تنبه فيه امر المعنيين ، واستأثر منهم فيه الامير فخر الدين ببعد الصيت وضخامة الجاه ، واتساع دائرة الاقطاع .

فوقعت هذه القلعة في قبضته كما وقع غيرها من القلاع والحصون الكثيرة فتبعت في ذلك العهد بيروت وصيداء . وجعلت مركز محافظة ، ووليها عمال محافظون فكانت مرة في محافظة حسين الطويل واخرى في اقطاع الشيخ يزبك العماد وثالثة كانت هي وشقيف تيرون تحت محافظة قائد خمسين سكبانيا من قبل الدولة العثمانية كما اتفق ذلك في مدة غيبة الامير فخر الدين المعني في اوروبا وذلك اخر العهد بها من العمران والاعمال في ذلك القرن الذي قضت به السياسة العثمانية قضاءً جائراً ، ان تمحى صورتها الجميلة من لوح العمران .

ولما جدد الامراء العامليون الدائر من قلاعهم ، واحدثوا ما أحدثوه من الحصون في منتصف القرن الثاني عشر الهجري واواخر الثامن عشر الميلادي جعلت قاعدة الاعمال المنسوبة اليها تحت يد حكامها الصعبيين وانضوت تحت لواء الاتحاد العاملي الاقطاعي المؤلف من المقاطعات الثمان وهي تبنين وهونين وساحل معركة وساحل قانا ومرجعيون والشقيف واقليم الشومر وجبع الحلاوة والمرجع العام للمقاطعات الثمان تبنين والحاكم فيها من آل الصغير . ولم يغص القرن الثاني عشر في بحر الازمنة المنقرضة حتى غاصت فيه هذه الدرة الفريدة مطوية المحاسن في في اقصى اعماقه يحدث عن عظمتها ما أبقته من الشعاع المتألق في قمة ذلك الجبل وما حفظه التاريخ من الآثار مدى الدهور والاعصار .

٥

بين الحصار والنار

إن موقع قلعة الشقيف الحربي الحصين وهو ما عرفت مكانته من تضاعف هذا المقال التاريخي غير مرة جعلها موضوع اهتمام المتغلبين ، ومطمح انظار الفاتحين ، فوجهوا شطرها وجوه قواتهم فتطاحنت حول اسوارها ومن عجيب امرها الدال على عظيم منعتها أنها لم تفتح ابوابها لمهاجم عنوة قط مهما غلظت قوة ذلك المهاجم وطالت مدة حصاره بل كانت تنتقل من متغلب الى آخر سلماً وصلحا بعد التضييق على حاميتها ، وقطع الميرة والذخيرة عنها ، فلم تملك بكثرة جيوش المحاصرين ولا بما كانت ترميها به المنجنيقات والكباش والعرادات والمدافع من مقذوفات النار والاحجار .

إن اورد لها بعض المؤرخين ذكرا رجع فيه الى مايسبق عهد صلاح الدين بما يربو على نصف قرن فقد اجمع المؤرخون على عدم سبق اي متغلب له في قصدها بالفتح والحصار – واما رواية بعض متأخري المؤرخين من تملك شمس الملوك اسماعيل ملك دمشق لها سنة ٥٢٨ هـ ١١٣٣ م بعد امتناعها عليه واخذها من الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم فيدفعها تصريح ابن الاثير في كاملة بأن الشقيف الذي تملكه شمس الملوك في هذا العهد هو شقيف تيرون لا شقيف ارنون «١» .

«١» ج ١١ ص ٤ قال في السنة ٥٢٨ هـ في المحرم سار شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق منها الى شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به فتحاماه المسلمون والفرنج يحتمي على كل طائفة بالاخرين فسار شمس الملوك اليه في السنة وأخذه منه في المحرم.

ومثل هذه الرواية في البطلان زعم بعضهم استيلاء شيخ رئيس الاسماعيلية عليها مدة من الزمن فان اراد شيخ الجبل بهرام ابن اخت الاسد اباذي ولا يريد غيره فلم يضع هذا يده على غير قلعة بانياس وذلك انه لما قتل خاله الاسد اباذي في بغداد هرب الى الشام وصار داعي الاسماعيلية فيه فاستجاب له اوباش الناس وطغامهم وكثر جمعه واقام مدة في حلب ونفق على صاحبها ايلغازي واراد ان يعتضد به لاتقاء الناس شره وشر اصحابه لانهم كانوا يقتلون كل من خالفهم واشار ايلغازي على طغتكين صاحب دمشق بأن يجعله عنده لهذا السبب فقبل رايه واخذه اليه فاظهر شخصه بعد ان كان يخفيه واعلن عداوته فكثر اتباعه من كل من يريد الشر والفساد واعانه الوزير ابو طاهر بن سعد المرغيناني قصد الاعتضاد به على ما يريد وهو الذي اشار على طغتكين بتسليمه قلعة بانياس سنة ٥٢٠ هـ لما طلب منه حصنا يأوي اليه هو واتباعه ، وقد رأى من اهل دمشق فظاظة وغلظة عليه وخاف عاديتهم بعد ان استفحل امره وعظم شره وملك عدة حصون من الجبال منها : القدموس وغيره من قلاع الدعوة ، وكان بوادي التيم من اعمال بعلبك أصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية والدروز والمجوس وغيرهم واميرهم اسمه الضحاك ، فسار اليهم بهرام سنة اثنتين وعشرين وحصرهم وقاتلهم فخرج اليه الضحاك في الف رجل وكبس عسكر بهرام فوضع السيف فيهم وقتل منهم مقتلة كثيرة ، وقتل بهرام وانهزم من سلم وعادوا الى بانياس على أقبح صورة .

هذا ملخص ما رواه ثقة المؤرخين ابن الاثير «١» من سيرة بهرام شيخ الاسماعيلية وليس فيما رواه تصريح او تلويح بامتلاكه قلعة الشقيف

«١» الكامل ج ١٠ ص ٢٦٩ و ٢٧٩

نعم استولى على حصون الجبال المجاورة للقدموس الذي هو احدها وهي التي اطلق عليها اسم قلاع الدعوة في عهد الدولتين الايوبية والتركية واستقرت في ايدي خلفاء بهرام من الاسماعيليين عملاً مستقلا «١»

واذا انتفت رواية استيلاء شمس الملوك عليها ودعوى وقوعها في يد بهرام شيخ الاسماعيلية قبل ذلك عنوة اوصلحاً ثبت سبق صلاح الدين كل من طمع بالاستيلاء عليها في قصدها بالحصار والفتح .

اما سبب قصدها بالحصار والخبر عن ذلك وعن استيلائه عليها فاليك منه ما يتسع له المقال ويحتمله المقام :

لما حالف النصر جيش ذلك المجاهد العظيم في الوقائع التي شبت بينه وبين الصليبيين نارها وسقط في يده اعظم ثغور الشام الجنوبي ومدائنه وكانت سنة الثلاثة بعد الثمانين والخمسمائة بدء سلسلة انتصاراته الباهرة وفتوحاته المتتابعة التي ظلت محالفة له حتى السنة التاسعة والثمانين وهي السنة التي غربت فيها شمس حياته . وكانت قد بقيت إلى سنة ٨٥ من المدن الساحلية مدينة صور ممتنعة عليه بموقعها الطبيعي المحصن من البر والبحر وبما انضم اليها من فلول البلاد التي سقطت في يده ومن النجدات التي اتتها من البحر فولى وجهه شطرها معتزما فتحها ولما راى ان بقاء قلعة الشقيف معتصمة بحاميتها الصليبية وهي على ما عرفت به من موقعها الحصين يقطع عنه الميرة إن قصد صور وتركها وراءه صمم النية على حصارها وفتحها والتفرغ بعد ذلك الى قصد صور .قال ابن خلدون في تاريخه «٢» ثم سار صلاح الدين في ربيع سنة خمس وثمانين الى محاصرة الشقيف وكان لأرناط

«١» قلاع الدعوة هي ست بخروج مصياف منها واضافتها الى دمشق فى ذلك العهد وكان لهاست نيابات وهي الرصافة والخوابي والقدموس والكهف والمنيقة والقلعة وكان يولى عليها نائب طرابلس « ملخص عن صبح الاعشي م ٤ ص ٢٣٥ و٢٣٦ »

«٢» العبر ج ٥ ص ٣١٧

صاحب صيدا وهو من اعظم الناس مكراً ودهاءً فلما نزل صلاح الدين بمرج العيون جاء اليه واظهر له المحبة والميل وطلب المهلة الى جمادى الآخرة ليتخلص اهله وولده من المركيش (المركيز) بصور ويسلم له حصن الشقيف فاقام صلاح الدين هنالك لوعده وانقضت مدة الهدنة بينه وبين سمند «١» صاحب انطاكية فبعث تقي الدين ابن اخيه مسلحة في العساكر الى البلاد التي قرب انطاكية ، ثم بلغه اجتماع الفرنج بصور عند المركيش وان الامداد وافتهم من اهل ملتهم وراء البحر وان ملك الفرنج بالشام الذى اطلقه صلاح الدين بعد فتح القدس قد اتفق مع المركيش ووصل يده به واجتمعوا في امم لا تحصى وخشي أن يتقدم اليهم ويترك الشقيف وراءه فتنقطع عنه الميرة فأقام بمكانه ، فلما انقضى الاجل تقدم الى الشقيف واستدعى ارناط فجاء واعتذر بأن المركيش لم يمكنه من اهله وولده وطلب الامهال مرة اخرى فتبين صلاح الدين مكره فحبسه وامره أن يبعث الى اهل الشقيف بالتسليم فلم يجب فبعث به الى دمشق فحبس بها وتقدم الى الشقيف فحاصره بعد ان اقام مسلحته قبالة الفرنج الذين بظاهر صور.

وما رواه ابن خلدون هو ملخص ما اورده ابن الاثير في كامله (٢) واما ابن شداد (٣) فقد اورد الخبر بما يلي وهو ممن شهد حصار الشقيف مع صلاح الدين قال بعد كلام ليس له مساس بالموضوع :

وجدد عزمه على قصد شقيف ارنون وهو موضع حصين قريب من بانياس وكان تبريزه في الثالث «من ربيع الاول» فسار حتى نزل مرج برغوث واقام به ينتظر العساكر الى حادي عشرة ورحل حتى اتى بانياس ثم رحل منها حتى اتى مرج عيون في السابع عشر فخيم به وهو قريب من شقيف ارنون

«١» في الكامل وغيره بيمند «٢» ج ١٣ ص ١٤ «٣» سيره صلاح الدين ص ٦٥

بحيث يركب كل يوم يشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب ، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعُدد وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقا الى سلامته فنزل بنفسه ومـا احسسنا به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان ، فاذن له فدخل ، فاحترمه واكرمه وكان من كبار الافرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ وبلغني انه كان عنده مسلم يقرأله ويفهمه وكان عنده ثان فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر له انه مملوكه وأنه تحت طاعته وأنه يسلم المكان اليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج واقطاعا بدمشق يقوم به وبأهله، وأن يمكن من الاقامـة بموضعه وهو يتردد من الخدمـة ثلاثة اشهر مـن تاريـخ اليوم الذي كان فيه حـتى يتمكن مـن تخليص أهله وجماعته من صور، فأجيب إلى ذلك كله وأقام يتردد إلى خدمـة السلطان في كل وقت ويناظره في دينه ويناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة ومتأدبا في كلامه ، وفي اثناء ربيع الاول وصل الخـبر بتسليم الشوبك وكان قد اقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصرونه مدة سنة حتى فرغ زادهم وسلموه بالامان .

وقال في مكان اخر من سيرته (١) ثم استفاض بـين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا أنه صادق في ذلك وإنما

(١) ص ٦٩ و ٧٠

قصد فيه تدفع الزمان وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة وإتقان الابواب وغير ذلك فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان، ويرسل سراً من يمنع من دخول النجدة والميرة اليه وأظهر أن سبب ذلك شدة حر الزمان والفرار من وخم المرج ، وكان انتقاله إلى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر (جمادى الاخرة) وقد مضى من الليل ربعه ، فما اصبح صاحب الشقيف إلا والخيمة مضروبة ، وبقي بعض العساكر بالمرج على حاله فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه ،وعلم أنه بقي من المدة بقية جمادى الآخرة حدثته نفسه ان ينزل إلى خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده في المدة وتخيل له بمـا رأى من اخلاق السلطان ولطافته أن ذلك يتم ، فنزل الى الخدمة وعرض المكان وقال المدة لم يبق منها الا اليسير واي فرق بين التسليم اليوم او غـدا واظهر انه بقي من أهله جماعة بصور وأنهم على الخروج منها في هـذه الايام واقام في الخدمة ذلك اليوم الى الليل وصعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيئا وأجراه على عادته وتقضي مدته عـاد ونزل بعد ايام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها وطلب الخلوة بالسلطان ، وسأل منه ان يمهله تمام السنة تسعة اشهر ، فأحس السلطان منه الغدر فماطله ومـا آيسه وقال نتفكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم وما ينفصل الحال عليه نعرفك ،وضرب له خيمة قريبة من خيمته وأقام عليه حرسا لا يشعر بهم وهو على غاية من الاكرام والاحترام له والمراجعة ، والمراسلة بينهم في ذلك القلب مستمرة ، حتى انقضت الايام وطولب بتسليم المكان فكشف له انك اضمرت الغدر وجددت في المكان عمائر وحملت اليه ذخائر فأنكر ذلك ، واستقرت القاعدة عـلى ان ينفذ من عنده ثقة يتسلم المكان

وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء ام لا ، فمضوا اليه فلم يلتفت اصحابه القيمون فيه اليهم . ووجدوه قد جدد بابا للسور لم يكن فأقيم الحرس الشديد عليه واظهر ذلك ومنع الدخول إلى الخدمة ،وقيل له قد انقضت المدة ولا بد من التسليم ، وهو يغالطعن ذلكويدافع عن الجواب عنه .

ولما كان الثامن عشر من جمادى الآخرة وفيه اعترف بانتهاء المـــدة قال : انا امضي واسلم المكان وسار معه جمع كثير من الامراء والاجناد حتى أتى الشقيف وامرهم بالتسليم فأبوا ، فخرج اليه قسيس وحدثه بلسانه ثم عاد ، واشتد امتناعهم بعد عود القسيس اليهم فظن أنه أكد الوصية على القسيس في الامتناع وأقام ذلك اليوم والحديثيتردد ،فلم يلتفتوا واعيد إلى المخيم المنصور وسير من ليلته إلى بانياس واحيط عليه بقلعتها فاحدق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين وأقام صاحب الشقيف ببانياس إلى سادس رجب واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة اشهر عليه وعلى عسكره ولم يعملوا فيها شيئا فاحضر إلى المخيم«١» وهدد ليلة وصوله بأمور عظيمة فلم يفعل وأصبح السلطان ثامن رجب ورقى الى سنام الجبل مخيمه وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان فيه أولى وأبعد من الوخم وكان قد تغير مزاجه

اما ارناط صاحب الشقيف فقد سير إلى دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه وقال في خبر تسليم الشقيف .

(١) قال العماد الاصفهاني فى الفتح القسي ثم استحضره في سادس رجب وهـــدده وتوعده وبالغ فى تخويفه على ان يبلغ المراد في شقيفه ، فلما لم يفد خطابه : ولم يجد عذابه سيره الى دمشق وسجنه والزمه شجاه وشجنه

ولما كان يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول علم الافرنج المستحفظون بالشقيف انهم لا عاصم لهم من امر الله وانهم إن اخذوا عنوة ضربت رقابهم فطلبوا الامان وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الاوان ، وكانوا قد علموا من حال صاحبهم انه قد عذب اشد العذاب فاستقرت القاعدة على ان الشقيف يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ويترك مـا فيه من انواع الاموال والذخائر ، وعاد صاحب صيدا والافرنج الذين كانوا بالشقيف الى صور .

واما العماد الاصفهاني فقد اورد خبر الحصار في الفتح القسي مطولا مفصلا على طريقة كتابه بأسجاع مطبوعة وإنا لنورد هنا ما ذكره من خبر فتح الشقيف وتسليمه طاوين كشحا عن حديث الحصار ومـــا فيه من الحوار قال (١) :

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع تسلم بالامان شقيف ارنون ، واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج عيون ، وصاحب ارناط صاحب صيدا في دمشق لاجله معتقل ، وباب خلاصه دون فتح شقيفه مقفل ، وذلك ان الشقي في الشقيف فني زاده ، وعز اجتهاده ومرد عليه في الحفظ مراده ، وخانه في الصبر ارتياؤه وارتياده ، ونخب من الرعب فؤاده ، واصلد باليأس زناده ، وامتنع اصداره وايراده ، فسلمه على ان يسلم صاحبه ، وتخلص في النجاة مذاهبه ، وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه ، وتركه للاسلام بما يحويه ، وافرج عن صاحب صيدا وصار الى صور ، ولبس من التشريف والتسريح حبر الحبور .

واليك ما جاء في وفيات الاعيان (٢) من خبر حصارها :

«١» ص ١٧٦ «٢» م ٢ ص ٥٢٥

ثم خرج (صلاح الدين) الى شقيف أرنون (١) وهو موضع حصين فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في سابع عشر من شهر ربيع الاول وأقام أياما يباشر قتاله كل يوم والعساكر تتواصل اليه فلما تحقق صاحب الشقيف ان لا طاقة له به نزل اليه بنفسه فلم يشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته فأذن له في دخوله اليه واكرمه واحترمه وكان من اكبر الفرنج وعقلائهم وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث وكان حسن التأني لما حضر بين يدي السلطان واكل معه الطعام ثم خلا به وذكر انه مملوكه وتحت طاعته وانه يسلم اليه المكان من غير تعب واشترط ان يعطى موضعا يسكنه بدمشق فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج واقطاعا يقوم به وبأهله وشروطا غير ذلك فأجابه الى ذلك وفي أثناء شهر ربيع الاول وصله الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد اقام عليه جمعا يحاصرونه مدة سنة كاملة الى ان نفد زاد من كان فيه فسلموه بالامان .

ثم ظهر للسلطان بعد ذلك ان جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فرسم عليه ثم ظهر له ان الفرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة خمس وثمانين وفي ذلك اليوم سير صاحب الشقيف الى دمشق بعد الاهانة الشديدة .

واما ابو الفداء فقد اقتصر من حديث حصارها على ما يلي :

في هذه السنة ٥٨٥هـ سار السلطان صلاح الدين ونزل بمرج عيون وحضر اليه صاحب شقيف ارنون وبذل اليه تسليم الشقيف بعد مدة ظهر بها خديعة منه فلما بقي للمدة (٢) ثلاثة ايام استحضره السلطان وكان اسم

«١» في النسخة التي اخذنا عنها هذه الجملة اربون «٢» المختصر ج ٣ ص ٧٦

صاحب الشقيف ارنلط فقال له السلطان في التسليم فقال لا يوافقني عليه اهلي واهل الحصن فأمسكه السلطان وبعثه الى دمشق فحبس . وفي الدائرة (١) وسنة ١١٧٩ وذلك بعد سنتين من موقعة حطين نزل صلاح الدين بعساكره في آخر شهر نيسان (ابريل) امام القلعة وحصروها وكان رينولد صاحب صيدا المعروف عند العرب بأرناط قائداً لعساكر القلعة فأطال بحيلة مدة الحصر كما علمت في ترجمته (٢) وفي شهر نيسان من السنة التالية استسلمت القلعة الى صلاح الدين بشرط ان يطلق رينولد الذي كان قد ارسله الى الشام موثقا وان يخرج العساكر منها بأمان .

وبالجملة فان كل ما كتبوا خبر الحصار لم يتعدوا هذه المضامين وكلها كما ترى صريحة بأنها لم تؤخذ عنوة بل أخذت بالتسليم والامان وفي ذلك نفي لروايتين تدوران على ألسن أهل القرى المجاورة لها — الاولى — ان صلاح الدين لم يستطع اخذها بالمنجنيق إلا بضربها به من قرية القليعة في الشق الآخر من الوادي على مسافة لا تقل عن اربع كيلومترات — والثانية — انه حاصرها اشهراً ولم يستول على حاميتها إلا بحيلة دبرها قروي (٣) من اهل ذلك الجوار فدعا الحامية خارج القلعة لمأدبة اعدها لها وكانت الحامية مستأمنة له وقد انهكها الجوع حتى صارت تأكل الفيران والجرذان فما شعروا وهم مشتغلون ببطونهم إلا وعسكر صلاح الدين قادمون بطعام في زي النساء حتى اقتربوا منهم فباغتوهم بالقتل فلم ينج منهم نافخ نار (٤).

«١» م ٣ ص ١٥٥ «٢» ص ٢٣٩ و ٢٤٠ «٣» ويقال ان القروي كان من قرية ميفذون على بعد ميلين من القلعة في الجنوب الغربي منها «٤» اورد الروايتين المقتبس م ٦ .

ولم تمتد يد الحصار اليها من عهد استيلاء (صلاح الدين) عليها، وعهد من وليها بعده ، وعهد وقوعها في يد الفرنسويين بالاتفاق عقـــده معهم اسماعيل ملك دمشق وفي الزمن الذي وقعت فيه بيد الرهبنة الهيكليين الذين ابتاعوها مع صيدا من (بوليانس) حاكم صيدا الى سنة ١٢٦٨ م ٦٦٦ ه حيث أتاها (بيبرس) في شهر نيســـان (افريل) وحاصرها حصارا شديداً . وكان قد خرج بعض العساكر منها في اليوم السابق فلم يستطع الذين بقوا فيها الدفاع عنها مدة طويلة . وبعد أن قاتلوا بضعة ايام ببسالة اضطرهم الامر الى الاستسلام فاستسلموا من دون شرط فأمر (بيبرس) الرجال ، واما النساء والاطفال فأرسلهم الى صور (١) .

وقال كيران : وفي سنة ١٢٦٨م استولى بيبرس على محـــل بلفور ومركزه ما بين الحصن والقلعة الجديدة ومن بعد ذلك حصونهـا استولى على القلعة ايضا ووضع بها عساكره .

هذا ما جاء في دائرة المعارف للعلامة البستاني وما أورده كيران من هذا الحصار وأما ابو الفداء فانه سكت عنه في مختصره. وابن خلدون اورده في تاريخه العبر بما هذا محصله :

وبلغه (الظاهر بيبرس) إغارة أهل الشقيف على الثغور فقصدها فشن الغارة على عكا واكتسح بسائطها حتى سأل الافرنج منه الصلح على ما يرضيه فشرط المقاسمة في صيدا .

وهدم الشقيف واطلاق تجار من المسلمين كانوا أسروهم ، ودية بعض القتلى

---

(٢) دائرة المعارف م ٣ ص ٢٥٥

الذي أصابوا دمه . وعقد الصلح لعشر سنين ولم يوفوا بمـــا شرط عليهم فنهض لغزوهم ، ونزل فلسطين في جمادي سنة ست وستين . ثم رجع الى حصن الشقيف فحاصره وافتتحه بالامان «٢» .

وجاء في خطط المقريزي ذكر فتح الشقيف في فتوحات (بيبرس) كما جاء في العبر مجرداً عن الاضافة وكذلك في كلمات المؤرخين الذين ذكروا خبره وخالف المقريزي ابن خلدون في تاريخ وقوعه حيث أورده في حوادث خمس وستين لا ست وستين .

وأما ابن سباط فقد نقل عنه الامير حيدر«١» خبر حصـــار الملك بيبرس لحصن الشقيف مضافا الى تيرون في حوادث سنة خمس وستين قال ابن سباط بعد أن ذكر تشديد بيبرس الحصار على ذلك الحصن وما جرى في خلاله من الحوادث .

فتسلمه يوم الاحد وهو التاسع والعشرون من شهر رجب فوجد فيه اربعة وثمانين رجلا واثنتين وعشرين امرأة فركبهن على الجمال وارسلهن الى صور وارسل معهن من يحفظهن خوفا ممن يؤذيهن ثم ارسل اثقـــال الحصن الى دمشق ورتب عليها بعض اناس . ويسمى هـــذا الحصن شقيف تيرون .

وبعد فلم يرد فتح الشقيف في فتوحات (بيبرس) الا مجملا وأنت خبير انه مردد بين الشقيفين أرنون وتيرون وفي رواية الدائرة وابن سباط

---

(٢) م ٥ ص ١٨٧ (١) ج ١ ٤٤٣ و٤٤٤

تقارب في ذكر حادثة الفتح وان تباعدا في اضافة الاولى الشقيف الى ارنون والثاني الى تيرون .

ويمكن الجمع بين كلام المؤرخين بفتح بيبرس للشقيفين ويقربه اختلاف تاريخ خبر الفتح ولعل فتح شقيف تيرون كان في سنة خمس وستين كما رواه ابن سباط والمقريزي وفتح شقيف ارنون كان في العام الذي يليه كما رواه ابن خلدون وكيران والدائرة .

أما فتح (بيبرس) لقلعة الشقيف فيؤيده امور «١» رواية الدائرة وكيران ما جاء في فوات الوفيات للصلاح الكتبي وسبق لنا ذكره .

وكانت الشقيف قلعتين مجاورتين فجمع (بيبرس) بينهما وبنى بها جامعاً وحماماً ودار نيابة . أما الجامع فلا يزال قائما في اعالي القلعة حتى اليوم . وأما الحمام فيظن بعضهم أنه كان في حضيض الجبل القائمة عليه القلعة كما مر ذكره في أحد الفصول (١) تسمية احد ابراجها برج الظاهرية ويعرف بوسمه الدائر حتى اليوم بهذا الاسم ، دخول المملكة الشقيفية في ممالك (بيبرس) في المعاهدة المعقودة بينه وبين مملكة بيروت سنة ٦٦٦ هـ ١٢٦٨ م .

ولما أوجست الدولة العثمانية خيفة من الامير فخر الدين المعني الذي اتسعت دائرة اقطاعه اتساعا عظيما وضخمت قوته وامتدت سطوته بعثت لمحاربته احمد باشا الحافظ نائب الشام وكثيرا من امراء هذه النواحي فلم يقابلهم وهرب الى بلاد الفرنج سنة ١٠٢٢ هـ ١٦١٣ م على رواية الامير حيدر

---

(١) ملخص عن خلاصة الاثر

وسنة ١٠٢٠ هـ و١٦١٢م على رواية المحبي «١» زحف الحافظ على بلاده بجيشه الجرار وحاصر قلعة الشقيف ستين يوما بنيف وخمسين الفا ولكنه لم ينل منها نيلا ولما استنجدت حاميتها « الامير يونس » اخا الامير فخر الدين وانجدها أغضب ذلك الحافظ فاستنفر لحرب، عمال الاطراف وساق الى بلاده من العساكر ما أيقن معه العجز عن المقاومة فاشار عليه بعض بطانته باسترضائه الحافظ واتخاذ والدته شفيعة عنده فلما قدمت عليه وهو محاصر القلعة وقدمت له المال والخيل قبلها ، وقبل شفاعتها . وخلع عليها وعفا عن ولدها « الامير يونس » مشترطا عليها دفع مائة الف نصفها فداء عن احراق الشوف والنصف الثاني لابقاء القلاع ورفع القتال «٢»

وفي سنة ١١٩٧ هـ ١٧٨٢ م بعد رجوع احمد باشا الجزار الى عكا جعل يفرغ جهده في امتلاك بلاد بشارة كما امتلك بلاد صفد وكان المتاولة متحصنين في القلع ومستعدين للقتال وهم ثلاث قبائل تحت رياسة ثلاث عائلات وهم بنو علي الصغير ومقدمهم الشيخ نصيف النصار واخوته . وبنو منكر فريق منهم مقدمه الشيخ محمد الحسن وعشيرته والآخر مقدمه الشيخ حيدر الفارس «٣» وكان عندهم ابطال لا تطاق في الحرب وكان قد جرى بينهم وبين الجزار وقائع كثيرة ولم يظفر منهم بطائل فجهز لهم

---

(١) يقول المحبي م٣ص ٢١٧ واقام بها (بلاد الافرنج) سبع سنين الى ان عزل الحافظ عن نيابة الشام فطلع الى مستقره في شوال سنة سبع وعشرين والف .

(٢) عن الامير حيدر والاعيان.

(٣) هو واخوه الشيخ علي الفارس كانا مقدمي العشيرة الصعبية في ذلك العهد وليسا من بني منكر بل كانوا يتقدمون عليهم

هذه المرة عسكراً عظيما . ولما بلغ الشيخ نصيف النصار قدوم العسكر جمع رجاله ونادى بقبائل بني متوال فاجتمعوا اليه من القبائل الثلاث لانه كان كبير المشايخ والجميع ينقادون اليه وسار بتلك العساكر قاصداً عسكر الجزار حتى التقوا بهم فهجم عليهم عسكر الجزار وانتشبت بينهم الحرب وحمل في مقدمة العسكر الشيخ نصيف النصار ولم يلبث أن اصابته رصاصة في رأسه فقتل ثم قتل اخوه الشيخ ابو حمد «١» وكان يعد في الحرب بالف فارس فانهزمت المتاولة واخلت البلاد ودخل عسكر الجزار الى بلاد بشارة وتسلموا قلعة هونين وقلعة تبنين «٢» وحاصروا قلعة شقيف ارنون وكان بها الشيخ حيدر الفارس وبعد ايام سلم فأخذها بالأمان ثم قتلوا كل من كان فيها «٣»

هذا تفصيل ما رواه الامير حيدر الشهابي من امر هذه الحادثة . واما من كتبها ممن ارخوا حوادث ذلك القرن من العامليين فقد رواها بعضهم كما يلي :

وفي سنة ١١٩٥ «٤» ارسل الجزار عسكراً الى حاصبيا فجـاء الى يارون «٥» فظن اهل بلاد بشارة ان العسكر يريدهم فحضر ناصيف فصارت معركة قتل بها ناصيف وخربت البلاد . وقيل ان عسكر الجزار حضر

«١» سبق التعليق على قتله في الجولان

«٢» في الاصل بونين

«٣» الامير حيدر

«٤» كل من كتب هذه الحادثة من مؤرخي البلاد ارخ حدوثها في هذا العام وصاحب البيت ادرى بالذي فيه

«٥» يارون قرية في جنوب جبل عامل متاخمة لحدود فلسطين

الى البلاد بواسطة صاحب قلعة هونين وصار قتل ناصيف بواسطته «١»

ورواها آخر بماهذا صورته : وهدمت الدولة هذه القلعة «قلعة هونين» وغيرها من القلاع سنة ١١٩٥ وسبب ذلك ان الجزار وناصيف النصار وقع بينهما حرب بأرض يارون وكانت الغلبة على ناصيف وقتل وحاصر الشيخ حيدر الفارس في قلعة الشقيف شهرين وسلمهـا واخذت الدولة ما في القلعة وهدموها «٢».

وبعد فان هذا آخر حصار شهدته هذه القلعة وآخر عهدها بالعمران وآخر ما ننظمه من درر حوادثها واخبارها المتناثرة في بطون التاريخ وصحفه المنسية ، وندع ما يحضرنا الآن مما ينتظم في هـذا السلك من المواد الاخرى وهو لايعدو خـدمة التاريـخ والآثار لأن اديباً انتقد علينا الاسهاب في هـذا الموضوع واقترح علينا الكتابة فيما هو اجدى نفعا للبلاد فشكرناله نيته وصراحته الدالة على صدق وطنيته والله ولينا في البدء والختام.

«١» عن مجموعة العلامة السبيتي «٢» نقلا عن مجموع مخطوط

٦

وصفها الشعري

قال الشيخ ابراهيم الحاريصي من شعراء القرن الثاني عشر من قصيدة يمدح بها الشيخ علي الفارس بن احمد الصعبي صاحب قلعة الشقيف وأحد حكام جبل عامل الاقطاعيين يصفها

ما الشقيف الصلد الا جنة — ولنا قصر باعلاه استتار
ليس يدنو منه في حسن البنا — قصر غمدان ولاعظم الجدار
تنظر المرآة فيه فترى — فوقك النهر ترائى بانحدار
ما رأينا قبل هذا جدولا — فوق قصر شامخ في الجوطار
لا ولا قصرا كهذا إنه — فلك يزهو ولكن لا يدار
زينة الدنيا على أرجائه — تزدهي في كل نحو كالفنار
نقشها مختلف مؤتلف — في ابيضاض واحمرار واخضرار
شامخ يأوي اليها اسد — وافتراس واقتناص وابتدار

وله من اخرى

لك القلعة الشماء أشرق بدرها — وإن كره الحساد في فرق فرقد
جذبت بها حتى بلغت بها السها — وقصر عنها كل قصر مشيد
وأبرزتها للوافدين فأقبلت — تنادي على شحط المدى كل مجتدي

وله من اخرى

أنت العزيز ودار العز داركم — بل أنت شمس الضحى في دارة الحمل

حصن حصين وابراج تدور على — قطب السعود ولا تنحط عن زحل
وشاهق راح يحكيها فقلت له — ليس التكحل بالعينين كالكحل

وقال الشيخ ابراهيم آل يحيى المخزومي العاملي في وصفها من قصيدة في مدح المشار اليه وهي من محبوكاته التي عارض بها محبوكات صفي الدين الحلي :

لمست انامك السماء بقلعة — غراء فيها للنجوم نزول
لعساء يرشفها الغمام وينكفي — عن وجهها فجبينها مبلول
لمياء شمس الظهر في آذانها — شنف وعند مغيبها تحجيل
لوأنصفت كان الهلال لجيدها — طوقا يلوح فانه مجدول
لوءم عداوتها وفي طاقاتها — ما يقتل الاحياء وهوقتيل

ويقول من قصيدة اخرى في مديحه ووصفها :

انت العزيز ودار العز داركم — بل انت شمس الضحى في دارة الحمل
حصن حصين وابراج تدور على — قطب السعود ولا تنحط عن زحل
تود جاراتها لو انها لثمت — منها جدارا ومن للصور بالحول
وشاهق راح يحكيها فقلت له — ليس التكحل بالعينين كالكحل

وقلت في وصفها :

قلعة كالعقاب فوق شمام — برزت في الشقيف ذي الاجام
كعبة الرياح أضحت وفيها — كم مطاف لها بها واستلام
أرشفتها الشمس المنيرة ثغرا — وهي اضحت مقبلا للغمام
ولكم للسيول عنها انحدارا — وعثارا لطائر الاوهام
من راى ماحوته من معجزات — خالها صورت من الافهام

قام بنيانها على صفحة ملسـ   اء اضحت مزلة الاقدام
لو مشي الدهر للقلاع احتشاما   لمشى الدهر نحوها باحتشام
حاولت ان تطولها الشهب شأواً   فانثنت سبحاً ببحر الظلام
قابلتها دراً يزينه النظم   فعادت دراً بغير نظــام
أبرزتها يد الصناعة شكلا   معجز الصنع محكم الهندام
اين عنها اهرام مصر جمالا   وجلالا اوفت على الاهرام
من يفته قرب اليها فما فا   ته في البعد روعة الاعظام
كم حديث عن الدهور روته   معرب معجم بلا اعجام
فهي رق الايام قد مـــلاته   مثلاث قرائـــح الايام



نقد افاضتنا في تاريخ هذه القلعة

اما مانالته من الاستحسان وما قرظته به المجلات الراقية ومنها المقتطف والمشرق ومن طلب الينا ترجمته الى بعض اللغات الاجنبية فانا لا نعرض الى شيء منه ونرى اولى بالاهتمام نقل انتقاد اديب لهوزه اديب آخر عليه

اما انتقاد الاديب الاول

فقد جاء في الجزء الثامن من المجلد السادس الصفحة ٣٩٥ من مجلة العرفان لسنتها ١٣٣٣ ه و١٦١٥ م ما يلي:

كتب الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر في العرفان عن قلعة الشقيف فاطال حتى خيل لمن لم يرها انه يصف اهرامات مصر وحصون فردون اوحصون لياج . وحقا ان الاستاذ من الكتاب المجيدين ، واهل النفس الطويل في الكتابة وما اظن الذين وصفوا الاهرام وهو اعجب عجائب الدنيا طالوا في وصفه كما اطال الاستاذ في وصف قلعة الشقيف حتى ملأ بوصفها اعدادا كثيرة من العرفان ، وشوق كثيرين ممن لم يروها الى الهجرة لرؤيتها ، ولعلهم ان رأوها يقولون تسمع بالمعيدي.

لايلام الاستاذ على اطالته في وصف قلعة الشقيف وهي في بلاده بل مناوحة لبلده بكرة وعشية نصب عينيه ماثلة امامه ببنائها الضخم لكن كان الاولى بالاستاذ أن يصرف نفيس اوقاته في غير هذا مما فيه صلاح وطنه ، وتهذيب ابنائه والعلم والتعليم وقد بلغنا ان خرائب القلاع القديمة في جبل عامل كثيرة فاذا اراد الاستاذ ان يصف كل واحدة منها بمقدار ماوصف به قلعة الشقيف او بنصفه على الاقل استغرق ذلك شيئاً كثيراً من سني العرفان ، وحرم القراء ماهو أجدى من وصف القلاع الخربة ، وملاجيء اليوم والغربان والسلام .

رد الاديب الثاني على النقد

قال ص٤٩٦ من الجزئين التاسع والعاشر من العرفان :

«قرأت في صحيفة ٣٩٥ من الجزء الثامن من المجلد السادس من مجلة العرفان الغراء ما خلاصته انتقاد ما كتبه الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر في قلعة الشقيف بأنه تجاوز الحد في اطالة وصفها وكأنه أعتقد اذ لاحظ العنوان المتكرر في اجزاء العرفان «جبل عامل وقلعة الشقيف» فحسب ان جميع ما كتبه الاستاذ منحصر في وصف القلعة نفسها من تحديد موقعها، وتمثيل فخامتها، وتعدد طبقاتها، ونحو هذا. ولو انه تجاوز النظر في عنوان الكتابة الى ما حوته من الحوادث التاريخية التي تعاقبت على القلعة في ازمات مختلفة، والادوار التي تقلبت عليها فضلا عما في خلال ذلك من اخبار المتغلبين وغيرهم ممن حاولوا امتلاكها، واخبار المدافعين عنها والمستسلمين لها لما رأى المنتقد موضعا لانتقاده إذ يرى عاما ما جعل عنوانه خاصا بوجه.»

ملحق

من الاصلاح الى الآثار اللبنانية الخالدة

تعاون حكومة لبنان الوطنية والمفوضية الفرنسية في عهد الانتداب على رفع الانقاض المتراكمة من امد بعيد في هذه القلعة والسادلة على محيا معالمها حجابا كثيفا يخفي محاسنها عن عيون زائريها الكثيرين من مختلف الامصار على اختلاف اللغات وقد احسنتا صنعا في هذا العمل المجيد وحالتا دون عبث مجاوريها بآثارها ونقل احجارها واتخاذها زرائب لمعزها وشائها وعنيت حكومة لبنان بشق طريق متفرع عن طريق النبطية مرج العيون وعبدته لسير السيارات اليها ولراحة الزائرين وقد حرصنا كل الحرص ونحن نعد تاريخها للطبع والنشر للحصول على نبذة نلحقها به مما عثر عليه القائمون بازالة انقاضها فلم نتوفق لما قصدنا اليه ولعلنا نبلغ هذا الغرض عند اعادة طبعها من مصلحة الاثار اللبنانية وهو من أهم أغراضها الحريصة على تدوينها حرصا على تنظيم فرائدها من هنا وهناك بعقد روائعها النظيم وما ذلك عليها بعزيز وهو من مفاخر لبنان ومهوى أفئدة زائريه ومتعة الابصار من هواة الاثار والمؤرخين .

مصادر هذا التاريخ

١ - كامل ابن الاثير

٢ - العبر لابن خلدون

٣ - مختصر ابي الفداء

٤ - وفيات الاعيان لابن خلكان

٥ - فوات الوفيات للكتبي

٦ - تاريخ الامير حيدر للشهابي طبع مصر

٧ - تاريخ بيروت لصالح بن يحيى

٨ - الفتح القسي للعماد الاصبهاني

٩ - سيرة صلاح الدين لابن شداد

١٠ - تاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس

١١ - تاريخ سوريا لجرجي يني

١٢ - دائرة المعارف للبستاني

١٣ - المقتطف

١٤ - الخطط للمقريزي

١٥ - صبح الاعشى للقلقشندي

١٦ - مجلة المقتبس للاستاذ محمد كرد علي

١٧ - ذخائر لبنان لابراهيم بك الاسود

١٨ - مجمع المسرات للطبيب شاكر الخوري

١٩ - قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست

٢٠ - العقد المنضد لشبيب باشا الاسعد

٢١ - امل الآمل للشيخ محمد الحر العاملي

٢٢ - تاريخ الركيني العاملي

٢٣ - تاريخ الشيخ علي السبيتي المؤرخ العاملي

٢٤ - الشعر العاملي المنسي للمؤلف

٢٥ - بعض المخطوطات العاملية

٢٦ - كيرات

٢٧ - بيدكر

٢٨ - مجلة العرفان

٢٩ - مجلة الآثار

كتب للمؤلف تحت الطبع

١ – معجم قرى جبل عامل

٢ – الالهيات (من ديوان شعره وحي الحياة)

٣ – الفلسطينيات (» » »)

٤ – القصة في القرآن الكريم

٥ – الرد على القاديانية

٦ – الملحمة العربية الاسلامية

٧ – الرحلة العراقية الاميرانية (شعراً)

٨ – الاماني الجامحة (مجموعة قصائد)

١٠ – اجزاء ديوان شعره (من وحي الحياة) في شتى المواضيع ومنها :

النبويات – العلويات – الحسينيات – الهاشميات ، من كل اثنتا عشرة قصيدة .

فهرست الكتاب

صفحة